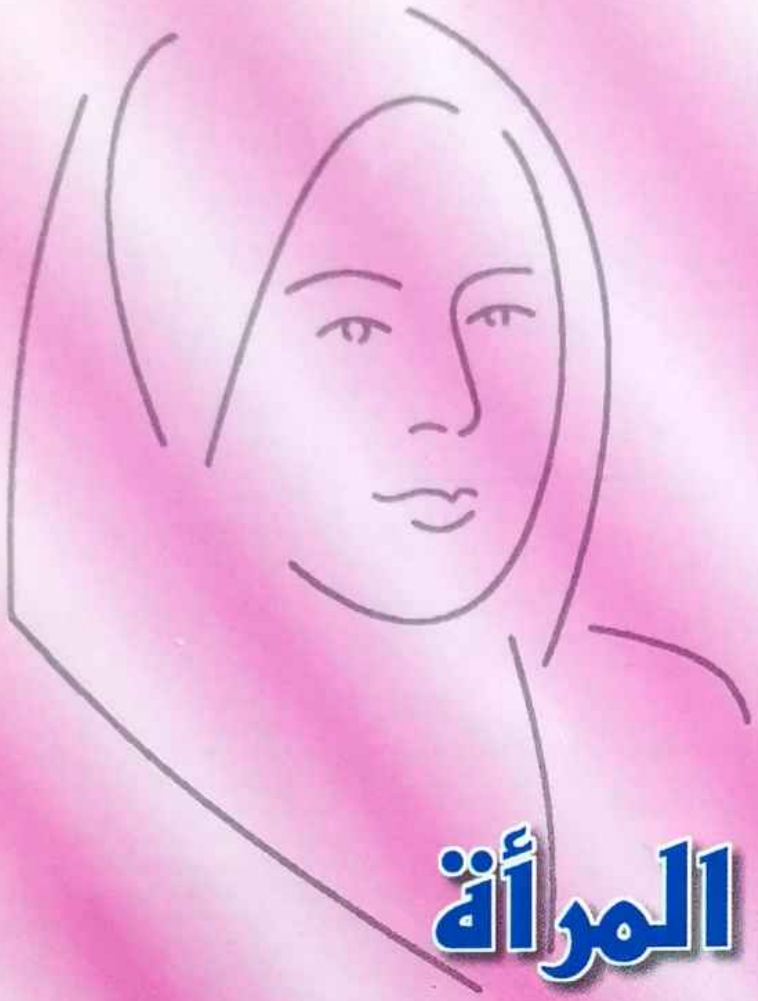

تأمّلات في

منزلة المرأة في القرآن الكريم

حنان اللّحام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أين المرأة المسلمة؟

أمام هذا السؤال وقفت أتأمل... وعادت بي ذاكرتي عشر سنوات إلى الوراء عندما واجهنا به أحد محرري مجلة الأمة ـ التي كانت تصدر بقطر ثم توقفت في ظروف غامضة مشيعة بحسرات المسلمين ـ وذلك أن المجلة كانت قد قامت باستطلاع لآراء القراء عن موضوعاتها فكانت نسبة اللواتي اشتركن في تقديم رأيهن اثنين في المائة فقط... عندها كتب المحرر يقول تحت عنوان (كلمة):

(قد يكون من المؤسف حقاً أن تكون نسبة مشاركة المرأة في استطلاع الرأي الذي طرحته الأمة لم تتجاوز الـ ٢٪ وقد مضى على الحركة الإسلامية الحديثة أكثر من نصف قرن. لكنه الواقع الذي لا يمكن أن نغمض العين عنه أو نتجاهله... فأين المرأة المسلمة التي استغرقت دفاعاتنا عنها عمراً ثم عدنا إليها فلم نجدها؟ وأخشى ما

يخشاه الإنسان أن يكون عنوان المرأة المسلمة لم يحقق الكثير من المضمون وان الحقيقة التي ما تزال تحكم بيوتنا وطباعنا وسلوكنا وتعاملنا هي مجموعة وراثات من التقاليد والعادات والبداوات نجعل منها ديناً وليست من الدين في شيء. وكثيراً ما يكون إسلامنا لخارج بيوتنا. إن هذه الوراثات التي تتحكم فينا لم تنتج المرأة المسلمة التي نتحدث عنها إلا في مساحات قليلة وقليلة جداً تكاد لا ترى اللهم إلا إذا كان اللباس وحده يصنع المرأة المسلمة. وكم يتألم الإنسان عندما يقلب صفحات الكتب والمجلات فتقع عينه على الكاتبة والباحثة والمؤلفة والروائية والناقدة والمدرسة ويرى نصيب المسلمة من ذلك أقل من القليل. فهل الإسلام هو المانع أم التشبث بالوراثات غير الإسلامية ؟! ولا ندري كيف يمكن للمرأة المسلمة أن تؤدي وظيفتها التي نلح عليها دون أن تدري ما الحياة وما مشكلاتها وكيف يمكن أن تعد أبناءها لحياة لا تبصرها . . ؟! لقد غابت صورة المرأة التي صاغتها النبوة: المرأة العالمة والمحدثة والكاتبة والمفكرة والباحثة والمبايعة والمشاركة في الغزوات . .

لم تنج المرأة المسلمة بعد من التقاليد والعادات غير الإسلامية فتتقدم إلى ساحة الفاعلية وتتقدم إلى المواقع الأمامية التي تليق بها)[1].

---

(١) صفحة ٤٤ من العدد الثامن والأربعون ـ السنة الرابعة ١٩٨٤ من مجلة الأمة.

تلك الكلمات حركت الأشجان في نفسي ودفعتني إلى كتابة المقالة التالية[1]:

أين المرأة المسلمة ؟!

سؤال طرحه كاتب كلمة: عودة إلى استطلاع الرأي (صفحة ٤٤ عدد ذي الحجة) فأدمى قلبي. حقاً إن الكلمة كانت تقطر ألماً.. عدت إلى كلمة الكاتب مرات... وحاولت أن أنظر في الأمر بتجرد.. وليس هذا الأمر باليسير على امرأة مثلي نشأت في عالم إسلامي متخلف وتنفست ثقافة الانحطاط طيلة أربعين عاماً.. وتلقت من الإهانات التي تعامل بها الأنثى في عالمنا هذا ما كان كافياً لتعقيدها وشحنها بمشاعر العداء لولا أن تداركتها نعمة الله ورحمته.

مسؤولية الرجل والمرأة:

أين المرأة المسلمة ؟! هل أقول إنها هناك حيث أراد لها بعض الرجال أن تكون. عند كل تفاهة وترهة.. في مجالس اللهو واللغو.. في الحفلات.. ووراء التقاليع والموضات.. دمية مرصعة بالملابس

---

(١) نشرت المقالة ي الصفحة ٦٣من العدد الثاني والخمسون من مجلة الأمة ١٩٨٥.

والمجوهرات والألوان والأصباغ.. تحمل وتلد.. وترضع أطفالها جهالة وخمولاً.. تربي بالجهالة والدجل لأنها لا تملك شيئاً آخر تنفقه.. وكل إناء بما فيه ينضح.. وليست هذه حال نساء العامة من المسلمين.. بل هي مع كل أسف حال زوجات وبنات أكثرية الدعاة من المسلمين.. إلا من رحم ربك ـ

لن أتسرع في الحكم وأحمل الرجل المسلم المسؤولية كلها عن غياب المرأة المسلمة الحقة فلكل مشكلة طرفان. ولكل ظاهرة أبوان.. وإن كانت الآية الكريمة توجه الإدانة للرجل حين تقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] فالقوامة مسؤولية وتوجيه ورعاية. وإذا ساءت أحوال المرأة فهي دليل على إهمال القوامة وسوء فهمها عند الرجل. هذا في الأحوال العامة ولا أتكلم عن الحالات الشاذة التي يستشهد بها الناس بامرأة نوح وامرأة لوط.

أقول رغم إيماني بمساهمة الطرفين في هذه المشكلة لابد أن نكون واقعيين ولا نغتر بالكلمات والخطب الرنانة. وسامح الله كاتب الكلمة حيث يقول (فأين المرأة المسلمة التي استغرقت دفاعاتنا عنها عمراً ثم عدنا إليها فلم نجدها ؟!)

هل لي أن أسأل: أيكفي الدفاع بالكلام وحده أمام تيار الثقافة المتدفق ؟! كيف تكفي الدفاعات والمرافعات في تغيير نفسية المرأة التي تُستقبَل عند ولادتها بالامتعاض.. ويميز عليها الذكر في المعاملة طيلة

حياتها. ويُنظر إلى تعليمها أنه من الكماليات. ويُستخف بها إن حاولت متابعة الأخبار والسؤال عنها. ومناقشة الأفكار والكتابة فيها.. ألا يحق لي أن أقول: أين هو الرجل المسلم الذي يحب أن يعرف من زوجته عند عودته إلى البيت: ماذا قرأت ؟ أكثر مما يهمه ماذا طبخت؟! لنكن واقعيين.. فإن المسلم لا يهتم في بيته إلا بطعام شهي وبيت مرتب ونظيف وزوجة جميلة وأولاد هادئين، إنه يؤمن أن من واجبها أن تهيىء له جواً هادئاً كي يرتاح من عمله ثم يجلس ليقرأ وحده ما يشاء.. دون أن يعكر عليه أحد.. أما أن يخصص لها وقتاً يتدارس معها فيه ويناقشها في الإفكار وما يَجِدّ من قضايا أو يتكفل بأولاده ريثما تحضر مجلس علم أو تشترك في مناقشة أو تحضير بحث.. فهذا هو (القطع النادر)

تدفع المرأة إلى الفساد:

في عالمنا الإسلامي المعاصر تدفع المرأة إلى الفساد ويوحى إليها أن الدين يظلمها ويحرمها من الكرامة والحرية. وتسخر لذلك كتابات ومؤلفات بل وسائل إعلام على مستوى العصر.. بكل ما تملك من فتنة واستهواء مستعينة على إقناعها بكل أخطاء الرجل المسلم النابعة من سوء الفهم للنصوص الشرعية فإذا نجت المرأة من كل ذلك ـ وقل ما تنجو ـ وعادت إلى دينها واجهتها معوقات وعقبات ثقافية عجيبة في تحصيل العلم وفي السلوك الاجتماعي بل وفي أدائها للعبادات.

ولست أنسى في هذا المجال ما قالته لي إحدى المؤمنات (كنت في جاهليتي تفتح لي النوادي والمسابح أبوابها على مصراعيها. ويغرونني بتصدر المجالس فيها. فلما هداني الله قصدت المساجد للعبادة فنهرت عنها ولم أجد لي مكاناً فيها.. حتى الحرم زجرت فيه.. وتعوذ بعضهم بالله من النساء وهو يشيح عني شزراً وكأنني شيطان دنس لأنني أردت أن أصلي خلف مقام إبراهيم عليه السلام. ولولا علمي بأن الإسلام غير المسلمين لانتكست وضعفت من جديد).

فرق بين الدفاع عن المرأة والتربية لها:

أعود فأقول: إن الفرق شاسع بين من يتكلم عن مكانة المرأة في الإسلام ويدافع عن حقوقها ومن يقوم بتربية المرأة المسلمة ويضعها في مكانها اللائق ويحملها رسالتها. وإن نسبة هذا الصنف الأخير ـ كما لمستم في إحصاء من شارك في الكتابة لاستطلاع الرأي ـ لا تتجاوز اثنين في المائة.

ولا أبخس الصنف الأول الذي يدافع عنها حقه.. فهو يمهد للثاني ويساعده في وضع الأسس النظرية.. ونحن حتى الآن لم نستطع أن نقدم ما يكفي في هذا المجال النظري إذ ما تزال النصوص ـ من آيات وأحاديث تتعلق بالمرأة ـ تفهم فهماً ذاتياً تطغى عليه الصورة الواقعية المعاصرة وتطبعه بطابعها.. ولا أزال أذكر أنني

اطلعت منذ سنوات على كتاب الدكتورة سلوى خماش (المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف) وتألمت لما فيه. فلقد نقلت الكاتبة الصورة الواقعية المؤلمة للمرأة وصوّرتها لنا في كتابها ونقدت مفاهيم المسلمين الذاتية عن المرأة. لكنها رغم سعة اطلاعها وحرصها على تقديم دراسة واقعية لوضع المرأة ومدى تطورها خلال سبعين عاماً أغفلت تماماً المستوى الذي وصلت إليه المرأة في صدر الإسلام وخلطت في نقدها بين الإسلام وفهم المسلمين الذاتي له. فشنت هجوماً على القرآن والنبي ﷺ لأنها لم تفهم من النصوص الواردة عن المرأة إلا الفهم الذاتي الذي يفهمه المسلمون في عصر انحطاطهم. وهي تشير في كتابها إلى عدد من المؤلفات المعاصرة التي حاولت أن تشرح مكانة المرأة في الإسلام وتنقدها.. مما أشعرني بعدم كفاية ما قدم حتى الآن في هذا المجال. ويا حبذا لو شاركت المرأة المؤمنة في تقديم شيء من هذه الكتابات الموضوعية فإن صوتها في هذا المجال لا يقل أهمية عن صوت الرجل. ووجودها كأنموذج وحضورها ومشاركتها يقطع كل كلام.. فأين أنت يا أختي المؤمنة ؟!

بين الحق والواجب:

لقد وجهنا اللوم إلى الرجال بما فيه الكفاية وذاك كلام يرضي ويخدّر نفوسنا ويعفينا من كل تبعة.. وما أسهل الحديث عن الحقوق والمطالبة بها. ولكن هل تحل المشكلة بهذا الأسلوب ؟! وهل هناك

إنسان يحصل على حقوقه قبل أن يؤدي واجبه. . ؟ إن أداء الواجب هو الذي يصنع الحقوق. ولقد قامت الصحابية بواجبها وارتفعت إلى مستوى المسؤولية وضحت بكل ما تملك من أجل بناء مجتمع رباني ولم تقف لتطالب بحقوقها بل جاءتها الحقوق كثمار ونتائج. كيف تطمعين يا أختي بنيل الاحترام والدعم وأنت حتى الآن تلهثين وراء التفاهات وتخوضين المتاهات. . لا هم لك إلا تتبع الأزياء والتقاليع والتفنن في ألوان الطعام والتباهي بالمظاهر والأشكال في الحفلات والمجالس الفارغة إلا من الهذر واللغو. . ؟! سمعت مرة أن رجلاً فكر بالتبرع بمبلغ في وجوه الخير. وكان قد سمع أن الإنسان إذا فكر بخير جاءه خمسون شيطاناً وكل واحد يدلي بحجته. فقال: تَفَلْتُ على خمسين شيطان وانتصرت عليهم فلما رجعت إلى البيت قالت الزوجة: الأولاد بحاجة. ويلزمنا كذا وكذا. . والإنفاق على العيال أكثر ثواباً فغلبتني المرأة. . !!

أين أنت يا أختي من الدور الجليل الذي قامت به الصحابيات من الدفع والتحريض على الخير. . ؟! لا تهملي نفسك وتحتقري جهدك. . فالميدان بحاجة إليك، ودورك لا يستطيع أن يقوم به أحد عنك. واسمعي النداء الذي يوجهه إليك أحد رواد الفكر الإسلامي المعاصر:

[أي أختي المؤمنة. . يا ابنة خديجة وسمية وأسماء والخنساء. . يا

من نحن بحاجة إليها كحاجة عمر إلى أخته فاطمة.. لا تظني أننا استغنينا عنك عند الفطام.. بل نحن في حاجة منك إلى غذاء آخر كانت تقدمه خديجة إلى رسول الله ﷺ حين وقفت بجانبه والعالم كله ضده.. وكانت تقدمه المؤمنات لأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن..

أيتها الأخت المؤمنة.. يا حاملة رسالة محمد ﷺ.. يا من أمها خديجة الكبرى وأختها فاطمة الزهراء.. يا رائدة الجيل.. ويا أخت سمية.. ويا حفيدة أسماء.. جددي عهد خديجة وسمية وأسماء.. ولتذهب نماذج هوليود إلى حيث ذهبت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. واعلمي أن جهدك واجتهادك رصيد للأمة فلا تحقري نفسك. فما من شيء يُخدم به الإسلام مثل الاجتهاد في الفكر والجهاد في العمل. بزيادتهما أو بنقصهما نتحول في صمت إلى أقوياء أو ضعفاء.

يا رائدة الجيل.. أيتها الفتاة المؤمنة..ما أعظم مآثرك.. وما أجل الأعمال التي تنتظرك[1]].

واليوم وبعد عشر سنوات مازال السؤال مطروحاً:

أين المرأة المسلمة ؟ وما هو دورها ؟ وكيف تؤدي دورها ؟

---

(١) صاحب هذا النداء هو المفكر الأستاذ جودت سعيد الذي كان له فضل كبير على المرأة المسلمة حين قدم الإحترام والرعاية والتعليم لنساء بيته ولأخواته المؤمنات.

تساؤلات تدور في أجوائنا الثقافية وتحظى بإجابات جوفاء طنانة.. كثيراً ما تأخذ طابع التغني بالماضي المجيد.. والتحسر على عهد زاهر أفل وغاب.. حتى إذا ارتدت أبصارنا إلى واقعنا وما فيه من لقطات ونماذج تتحرك في معترك الحياة اليومية.. وجدنا صورة مخيبة للآمال موجعة للقلب. لماذا انقلبت الصورة وماتت الأزاهير وخبا نور تلك العهود.. وغابت تلك الشخصيات النسائية الفذة ؟! تلك قصة طويلة يجدر بنا أن نتتبع جذورها وأسبابها وما أثمرت من شوك وعلقم..إنها مرحلة أفول الحضارة الإسلامية، وقصة التخلف والهوان الذي لحق بنا رجالاً ونساء.. لكن ما وقع على كاهل المرأة كان أثقل.. وهكذا ضيعت دورها.. بل ربما أصبحت هي إحدى العقبات في وجه التقدم والارتقاء.

فلقد أضاف المسلمون ـ عبر العصور ـ إلى نصوص القرآن والسنة المتعلقة بالمرأة أحكاماً ومفاهيم اعتقدوا أن فيها صيانة أكثر ـ من باب الاحتياط لحماية المجتمع ـ ثم اختلط فهم المسلمين للنصوص بالنصوص ذاتها وأصبح هذا كله هو الإسلام الذي لا يمكن الخروج عنه في نظر الناس. وهكذا وقعت المرأة تحت الأغلال. فلقد حرمت المرأة من العلم من باب أن أفضل أحوال المرأة أن لا ترى الرجال ولا يرونها. ولماذا تتعلم طالما أنها لن تكون أكثر من موضع شهوة وأداة تفريخ..؟!

47

ألم يروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسيره ﴿السفهاء﴾ أنهم:

(النساء والصبيان[1])! ولم ينقض القرن الأول الهجري حتى قال ابن شهاب الزهري: (العلم ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ويكرهه مؤنثوهم[2]). فكيف تتحرك همة المرأة للعلم وهي تتلقى هذه الإيحاءات من علماء الأمة..؟! واستمر الحال في ترد حتى وجدنا المتنبي يعتذر للناس عن مدحه لسيدة كريمة فيقول:

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى الفعل والنسب

فالأصل في الأنثى أن لا تكون كريمة الفعل..!!

وجاءت الفتاوى بعد ذلك بحرمة كشف وجه المرأة ـ من باب الاحتياط ـ ومنعها من الخروج لصلاة العيدين مع أن رسول الله ﷺ أمر بخروجها.. وأشعروها بحرمة أن تطالب بالفراق إن كانت كارهة لزوجها وألزموها بالرجوع إلى بيت الطاعة.. وأقنعوها أن لا مبرر لوجودها إلا إرضاء الرجل.. (وانظر إلى الأحاديث التي يحشدونها في هذا المجال ويحملونها ما

---

(١) راجع تفسير ابن كثير للآية « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » في سورة النساء.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير عند الترجمة لمن توفي في عام ١٢٤هـ من العلماء.

يريدون من المعنى..) هذه مجرد أمثلة بسيطة من التعقيد الذي فرض على المرأة المسلمة حتى تشوه كيانها.. وضاع منها دورها الأصيل الجليل.. وارتدت على أعقابها إلى أدوار الجاهلية في عالم الحياة فيه للأقوى.. والقانون من صنع الأقوى. ولعل بعض القراء يشعر بأنني أبالغ في الحديث عن معاناة المرأة. ولذا فإنني أشعر بضرورة الإطلاع على البحث الذي قدمته الدكتورة ليلى عبد الوهاب عن(العنف الأسري) وفيه دراسة فكرية وميدانية ـ في المجتمع المصري ـ عن العنف الموجه ضد المرأة. وفي المقابل العنف الموجه من المرأة ضد الرجل.

والمؤلم حقاً أن تكتشف أن جرائم المرأة كانت ردة فعل لظلم كبير كانت تعيش عليه وكأنه غذاؤها اليومي.. وأحياناً تقع الجريمة نتيجة لدفاعها عن نفسها.. ومع ذلك كان يحكم عليها بالسجن عشر سنوات أو خمس وعشرون سنة[1].

---

(١) الحالة الأولى التى عرضتها الكاتبة في الصفحة ١٣٣ عاشت مع زوجها ٤٨ عاماً وهو يضربها ضرباً مبرحاً.. في المرة الأخيرة ضربته دفاعاً عن نفسها فقتل. قال لها ابنها بعد الحادث: لماذا فعلت بنفسك كده ياأمي ؟ ردت: يعني حيعملوا فيه إيه ؟ حيودوني السجن ؟ طب ماأنا كنت في سجن بجلاد من ٤٨سنة.. حكم عليها بالسجن عشر سنوات. أما جرائم الرجل ضد المرأة فقد عرضت الدكتورة ـ من جملة ما عرضت ـ صورة عن نماذج من الجرائم التي أعلنت عنها الصحف. وهذه بعض=

وتكشف الدراسة أيضا عن عجز فاضح في إنصاف المرأة. . فأهل المرأة لا يتدخلون لمنع الزوج من ضربها وإهانتها. . وإذا جاءت إليهم تشتكي ردوها إلى زوجها من أجل أولادها. وأولاد المرأة لا يقدرون على حمايتها من أبيهم. وحتى الشرطة تكتب المحضر بفتور وترد المشتكية إلى بيتها. . وأما المحكمة فلا تستطيع الوصول إليها. فإن وصلت المرأة إليها رفضت منحها الطلاق وحكمت عليها بالعودة إلى بيت الطاعة. . !! وكأن الجميع قد تواطؤوا على خذلانها. . تلك هي المؤودة الجديدة في عالمنا. . ولذا تجد غالبية النساء مذعنات مستسلمات. . أو يلجأن إلى الحيلة والمكر كدأب الضعيف في كل عصر. . ويكرهن إنجاب البنات. . ويحقدن على الرجال.

وجاءت النتيجة الأدهى والأفظع حين أسقطت مشاعر الكراهية والحقد على الإسلام حيث صور الجهل لنا أنه هو السبب في هذا الظلم. ولذا علينا أن نعذر الشباب ـ والفتيات خاصة ـ حين نسمع

= العناوين المذكورة: يشعل النار في زوجته عندما عاتبته علي زواجه من أخرى ـ ابن عاق يرتكب جريمة بشعة: ـ انهال على أمه العجوز بالركل حتى لفظت أنفاسها ـ يفقأ عيني طفلته بسبب كراهيته للبنات ـ مزارع يقتل زوجته وطفلته بالرصاص والساطوربسبب الشك ـ يقتل زوجته بسبب تأخرها في إعداد الطعام ـ مفتش تموين بالمنصورة يخنق زوجته وياقي جثتها في الترعة ـ يهشم رأس ابنته بالفأس لرفضها الزواج من ابن عمها. . . الخ

منهم كلمات التمرد على الإسلام. فإن الصورة التي نقدمها الآن عن المرأة المسلمة ـ بل عن الإسلام كله ـ ممسوخة منفرة.. إن المرأة المسلمة المعاصرة مازالت في كثير من أحوالها سطحية هامشية الاهتمام. حتى إذا فكرت بالتحرك للخير واجهتها الأغلال والعقبات التي تأخذ طابع الفتوى أحياناً.

ولا أنكر جهود المصلحين التي بذلت في هذا المجال. بل نحن الآن نُعتبر من نتائج إصلاحهم. لكن المؤسف حقاً أن الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام ودورها قد أخذ طابع الفخر والتباهي.. وكأنه حلية نزين بها صدر الإسلام بينما الواقع شيء آخر.

مثلاً: إن حضور المرأة للندوات والمؤتمرات الفكرية ومشاركتها بالحديث يعتبر مستهجناً عند طائفة من علماء المسلمين ـ إن لم نقل حراماً في نظرهم ـ ومن فضول القول عند طائفة أخرى.. وهذا له أثره في نفسية المرأة من حيث شعورها بعدم الارتياح للمشاركة.. وله أثره في وضع العقبات في طريقها. مع أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على حضور المرأة وشهودها الخير في كل مجال. وكانت المرأة تسأله وتحاور وتناقش بحضور الرجال والنساء.

والبحث في هذا المجال لا يراد به مصلحة المرأة وحدها.. بل من أجل تقدم المجتمع وارتقائه. وكما يقول مالك بن نبي (رحمه الله):

(أن توضع المرأة حيث تؤدي دورها كخادمة للحضارة وملهمة

لذوق الجمال والأخلاق). . وعلى المرأة أن تنتبه أن رفع مستوى المجتمع هو الذي يؤدي إلى استمتاعها بمكانة أفضل بينما ضاعت كل دعاوي تحرير المرأة في المجتمعات الجاهلة والمتخلفة. ولقد اقترح مالك بن نبي منذ أربعين عاماً ـ تقريباً ـ في كتابه: (شروط النهضة) عقد مؤتمر لتحديد مهمة المرأة وكيف تؤدي دورها. . بشرط أن يضم الوسائل الكفيلة بتناول المشكلة من جميع أطرافها. مثلاً: أن يضم علماء النفس وعلماء التربية والأطباء وعلماء الاجتماع وعلماء الشريعة. . وحينئذ نستطيع أن نقول: إننا وضعنا المنهج السليم لحياة المرأة. لكنني أعتقد أنه لابد أن يسبق ذلك عملية توعية وتغيير للمرأة والرجل. . بدليل أن اقتراح مالك هذا لم ينفذ حتى الآن. ولم يتحمس له أحد من الرجال أو النساء. ولعلي لا أتجاوز حدودي لو تساءلت: وهل تنجح المؤتمرات في عالمنا ؟

حقاً إنه لأمر مؤلم. . إن المؤتمرات والبرلمانات والآلات والأجهزة وحتى سلة المهملات. . كل ذلك قد اقتبسناه أو استوردناه. . لكنها كلها فقدت دورها ومعناها في مجتمع إنسانه أصبح كَلاً أينما توجهه لا يأت بخير. . وكما قال الشاعر: (عِلّةً يُصبح ما مسّ العليل) ويبدو لي أن المؤتمر في الأصل يأتي ثمرة جهود بذلتها مجموعة من الناس أو الأمم قبل اللقاء في مؤتمر. . بحيث أن كلاً منهم بذل كل ما يستطيع للتغلب على مشاكله فنجح في جوانب وبقيت أمامه جوانب أخرى. .

فهو يلتقي في المؤتمر ليضم جهده واجتهاده إلى اجتهاد الآخرين. وعندها يمكن أن يخرج بحلول علمية. فكيف نستفيد من المؤتمرات ونحن لم نقم بعد بواجبنا اليومي الذي يقع ضمن دائرة إمكاناتنا ؟!

أعود لأتساءل: **كيف يمكن أن تؤدي المرأة المسلمة دورها ؟**

أشعر أن علينا أن نتحرك باتجاهين:

الأول: أن تبدأ المرأة بتغيير نفسها لأداء دورها.. فأداء الواجب هو الطريق الذي يؤدي إلى نيل الحقوق. فالتي تؤدي واجبها وتحضر في مجتمعها وتعنى بشؤونه تفرض احترامها وتستطيع أن توجه الرجل إلى الخير وتدعمه.

الثاني: أن يساعدها الرجال بإزاحة ما يمكن من العوائق.

مثلاً: على صعيد البحث العلمي نحن بحاجة إلى:

١ـ فرز النصوص الواردة في موضوع المرأة وفصلها عن مفاهيم المسلمين وما درجوا عليه من تقاليد. وهذا يشمل:

١ـ ما ورد في القرآن عن المرأة. وهذا ما حاولت القيام به في الفصل التالي.

٢ـ ما ورد في السنة وقد قدم الأستاذ عبد الحليم أبو شقة جهداً مباركاً في هذا المجال في كتابه القيم (تحرير المرأة في عصر الرسالة).

٣ـ التمييز في النصوص بين الأسس (التي تمثل مقاصد الشريعة)

والأحكام الفرعية المرحلية التي خضعت للبيئة والظروف المعاصرة لمجيء النصوص. وهو أمر يحتاج إلى نظر العلماء أهل الحل والعقد، فهم أصحاب الكلمة الفصل في هذا الموضوع.. ومع ذلك فقد سمحت لنفسي بعرض بعض الآراء في هذا المجال.. فإن كان صواباً فالحمد لله.. وإن أخطأت فإن الخير أبقى وسيأتي من يسدد ويصحح كما وعد الله ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وعلى الصعيد الاجتماعي فينبغي أن ينظر إلى المرأة على أنها المشرفة الأولى على عملية ترقية النوع ـ باعتبارها الأم والمعلمة في مرحلة الطفولة ـ ولابد من دفعها لتحصيل العلم الكافي وإعدادها فكرياً ونفسياً لأداء دور الأم والزوجة والداعية.

وعلى الصعيد العالمي ينبغي أن نستفيد من خبرات الأمم من حولنا ونحترم جهودهم والنتائج التي توصلوا إليها.. ونتجنب التجارب المريرة التي خاضوها. وأذكر في هذا المجال نموذجين:

١ـ المرأة الروسية وما قاله جورباتشوف عنها في كتابه (بيروسترايكا) حيث قال:

(لقد قضت الدولة السوفييتية قضاءً مبرماً على مختلف أشكال امتهان حقوق النساء الذي كان سائداً في روسيا القيصرية. وأقامت مساواة تامة بين المرأة والرجل يضمنها القانون.. الحق المتساوي مع

الرجل بالعمل وعدم التفريق في الأجور والحماية الاجتماعية. وقد حصلت المرأة على كافة إمكانات الدراسة وممارسة الوظيفة والمشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي. ولعله ما كان بوسعنا أن نبني المجتمع الجديد ونصمد في الحرب ضد الفاشية لولا الإسهام الفعال من جانب النساء وتضحياتهن الكبيرة. ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المميزة المتعلقة بدورها أماً وربة أسرة. كما كدنا ننسى وظيفتها التي لا بديل عنها مربية للأطفال. فلم يعد لدى المرأة العاملة في البناء وفي الإنتاج وفي قطاع الخدمات وحقل العلم والإبداع ما يكفي من الوقت للاهتمام بالشؤون الحياتية اليومية. كإدارة المنزل وتربية الأطفال.. وحتى مجرد الراحة المنزلية..

وقد تبين أن الكثير من المشكلات في سلوكية الفتيان والفتيات وفي قضايا خلقية واجتماعية وتربوية وحتى إنتاجية إنما يتعلق بضعف الروابط الأسرية والتهاون بالواجبات العائلية. وإننا نعمل في مجرى البيروسترايكا على تصحيح الخلل الذي طرأ على المساواة بين الرجل والمرأة. ومن هنا يدور الآن نقاش حاد وحماسي في صحافتنا ومنظماتنا الاجتماعية وعلى كل الصعد حول مسألة استعادة المرأة لدورها الأنثوي الحقيقي الكامل.. إن معافاة العائلة وتنشيط دورها في الحياة وفي تطوير المجتمع تمثل الآن بالنسبة إلينا المهمة الاجتماعية الأكثر إلحاحاً) (صفحة ١٦٦-١٦٧ من كتاب بيروسترايكا).

كأن جورباتشوف هنا قد أدرك عملياً - ومن حيث لا يدري - مغزى قول رسول الله ﷺ للنساء: «إن حسن تبعل إحداكن يعدل كل ذلك».

بينما المرأة المسلمة لم تدرك دورها بهذا العمق. وتظن أن اهتمامها بالأسرة ضياع لمواهبها وقدرتها الإنتاجية.

٢- فلننظر إلى المرأة الأمريكية ولنحاول أن نسمع رأيها.. هاهي الكاتبة الأمريكية جين بيكر ميللر تعرض رأيها في كتابها (نحو علم نفس جديد للمرأة) الذي كتبته لأسباب منها:

١- أن صفات المرأة النفسية لم تحظ بالاهتمام الكافي.

٢- أن المرأة وحتى الكاتبات من النساء يبدو أنهن يفترضن أن النموذج الكامل الذي يجب أن تسعى المرأة لتمثله هو الرجل. بينما هي كانت تعلم أن السعي لأن تكون المرأة رجلاً أو مثل الرجل هو سعي مدمر. وتقول:

(إذا نظرنا إلى ما ظلت المرأة تفعله دائبة في الحياة نلاحظ أن شطراً كبيراً منه يمكن أن يوصف بأنه «المشاركة الفعالة في نمو الآخرين» وهذا ينطبق على الكبار كما ينطبق على الأطفال. وعبارات المتخصصين في وصف هذا العمل كثيراً ما تجعله يبدو كعمل سلبي. إن هذا العمل يمكن أن يوصف بعبارة أخرى على أنه بذل النساء لقدراتهن العقلية والعاطفية لإمداد الآخرين بالقوة. أي لبناء قوة

الآخرين وطاقاتهم ونشاطهم وصحتهم النفسية. هذه الخصوصية لم تحظ باهتمام كافي من قبل علماء النفس رغم حيويتها للحياة، ولم يشجع النساء على تقدير أهميتها.. بل أشعرت المرأة أن عملها هو من الدرجة الثانية رغم أنه يتصل بأهم حقيقة بشرية: النمو.. وفوق ذلك فإنها لا تجد الفرصة للنمو هي ذاتها لأن عليها أن تعمل على نمو الآخرين في ظروف من العزلة وعدم تقديم الدعم الثقافي والاجتماعي إليها في مهمتها. ثقافتنا هي التي تفترض أن يثبت في عقل الذكر أنه يجب أن يُحدَم والأنثى يجب أن تحدُم.. والمشكلة التي يجب أن نحلها الآن: كيف نوجد حياة يُقدّمُ الإنسان فيها الخدمة للآخرين دون أن يكون تحت خدمتهم.. (أي باختياره). كيف نجعل هذا ضرورة ؟ !

إن مجتمعنا يلقن الرجل أن يتمركز حول نفسه. ويلقن المرأة أن تتمركز حول الآخر. خطأ يبدو بسيطاً ولكن كل أحد يعاني بسببه..

جداتنا كن يقلن «إن الرجال يظنون أنهم يعملون الشيء المهم.. دعهم يظنون ذلك كي تستمر اللعبة كما هي.. فبدوننا لا يستطيعون عمل شيء..» ولكني أقول: إن الموضوع لم يعد لعبة.. ولا كان لعبة.. فالرجال يستطيعون سلوكاً أفضل.. سلوكهم الآن يقود إلى أشياء خاطئة.. إلى الحرب مثلاً ونحن النساء نساهم في ذلك طالما أننا نقبل أن نكون جزءاً من الصورة القديمة) انتهى.

هذا الكلام دقيق وعميق. فقد احتقر الرجل والمرأة العمل الجليل

42

الذي تقوم به المرأة وهو: خدمة الآخرين وبذل الجهد لتحقيق النمو لهم. والكاتبة تتطلع إلى تغيير مفاهيمي بحيث يصبح الرجل والمرأة يسعيان إلى خدمة الآخرين وتحقيق النمو للجميع كي ينتهي الصراع والفساد من الأرض. إن العالم يبدو مهيأً أكثر من أي وقت مضى لإدراك مقاصد الدين.. إذ إن جوهر الدين هو السعي لخدمة الآخرين. فلقد كشفت له كثير من آيات الآفاق والأنفس.. ولكن المسلمين قد قصروا في تقديم آيات الكتاب له.. وتمثيل النموذج الصحيح للمجتمع الرباني.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

منزلة المرأة في القرآن[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

ترددت في الكتابة في هذا الموضوع لكثرة ما قيل فيه. لكنني عدت إلى نفسي وقلت يجب أن تتناول هذا الموضوع امرأة فهي أقدر على تذوقه وملاحقة أبعاده.. وإن ما قيل حتى الآن غير كاف.. ولا يخلو أحياناً من محاولة تبرير الواقع السيء المعاش. ولهذا قررت أن أتناول هذا البحث باجتهادي الخاص.. وأعبر فيه عن أفكاري ومشاعري وإن كانت جريئة.. فإن الذي يعلم السر وأخفى قد أعطاني صلاحية التفكير والتعبير بحرية.

---

(١) هذا البحث حضرته وقدمت موجزاً له في مؤتمر القرآن الذي أقامته المستشارية الإيرانية في دمشق ودعتني للإشتراك فيه وذلك في ١١/ ١٩٩٤م.

سيدور البحث حول العناصر التالية:

١ـ الأصل الواحد للمرأة والرجل.

٢ـ التكليف واحد لهما ماعدا استثناءات بسيطة.

٣ـ المسؤولية عن الخطأ واحدة.

٤ـ الثواب والعقاب لهما واحد في الدنيا والآخرة.

٥ـ حديث القرآن عن المرأة عامة.

٦ـ حديث القرآن عن نماذج نسائية محددة.

٧ـ ما توحي به هذه النماذج من خصائص نفسية للمرأة.

٨ـ سور عديدة تتحدث عن قضايا المرأة والأسرة.

٩ـ حديث القرآن عن ظلم المرأة والتشريعات والتوجيهات لمنع ظلمها.

١٠ـ المرأة العاملة في القرآن.

١١ـ الوقوف عند بعض الإشكالات. الشهادة ـ الميراث ـ القوامة ـ علاج النشوز.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

تعدد الزوجات ـ لباس المرأة.

والآن لننطلق مع القرآن في حديثه عن المرأة من البداية.. من الجذور حتى نصل إلى الفروع.

١ـ منذ البداية قرر القرآن الأصل الواحد للرجل والمرأة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

٢ـ وجاء التكليف بعد ذلك ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] فالتكليف واحد لهما والمسؤولية التي حملاها واحدة.

٣ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] فالتبعة تقع عليهما معاً في الخطأ ومخالفة أمر الله. وليس في القرآن آية واحدة تنسب الخطأ إلى حواء وحدها في الأكل من الشجرة.

٤ـ ولهذا يأتي الحديث عن الثواب والعقاب في القرآن على أنه متساوٍ بين الرجل والمرأة في الوعد والوعيد في الآخرة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وفي نتائج الدنيا ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والعقوبات متساوية ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ..﴾ [المائدة: ٣٨].

والمدح والثناء واحد ومتساوٍ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

لقد نزل الإنسان إلى الأرض وقد حمل الأمانة التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها.. إنها عبادة الله والقيام بالخلافة في الأرض وترقية الحياة وإصلاحها.. والمرأة والرجل سواء في حمل هذه الأمانة. إذ أن لفظ الإنسان في القرآن يشمل الرجل والمرأة.. وحتى لا يظن الناس أن الرجل وحده هو صاحب هذا الدور ضرب الله مثلاً على حسن القيام بهذه الأمانة وعلى خيانة هذه الأمانة بنماذج نسائية: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا

عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٠-١٢] وحين نذرت المرأة الصالحة - امرأة عمران - ما في بطنها لخدمة دين الله كانت واقعة تحت تأثير الثقافة السائدة التي توحي بأن هذا الدور يقوم به الرجل فقط.. وجاء المولود أنثى ونزلت الآيات تصحح المفاهيم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

فالتكاليف في القرآن جاءت واحدة للرجل والمرأة في العبادات والأخلاق والمعاملات. اللهم ماعدا استثناءات بسيطة تتناسب مع الفروق الطبيعية بين الجنسين. انظر مثلاً بعض التوجيهات الواردة في سورة النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا . . .﴾ [النور: ٣٠] فقد زاد هنا التكليف للمرأة بالأمر بضرب الخمار وستر الزينة. حفظاً للمجتمع من الفتنة. فالمرأة موضع الجمال ومن طبيعتها حب الزينة ولا بد من وضع الضوابط لهذه الرغبة حتى لا تنغص سعادة الآخرين. وفي

الحقيقة إن الإعراض عن تطبيق هذا الأمر الإلهي قد أضر بالمرأة قبل الرجل.. ألا يكفي أنها فقدت دورها الإنساني الجليل لتصبح أداة للجنس ووسيلة لترويج السلع..؟!

كذلك فقد كُلّف الرجل بالقوامة ـ وهي القيام على شؤون المرأة وحسن رعايتها كما سنشرح فيما بعد ـ والإنفاق على المرأة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] وذلك لمساعدة المرأة على التفرغ لدورها العظيم في صناعة الإنسان وتربيته. فزاد التكليف هنا على الرجل.

٥ـ يتحدث القرآن عن المرأة المؤمنة حديثاً ينضح منه الاحترام والتكريم. أنظر مثلاً قوله عن الزوجات المؤمنات ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة ١٨٧]. فالمؤمنة هي السكن والمودة والرحمة لزوجها ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وأعظم من ذلك منزلة الأم. فالوصية في القرآن بعد توحيد الله في العبادة هي الإحسان للوالدين وخاصة الأم لكثرة عطائها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤ـ١٥].

وقد شرح ذلك رسول الله ﷺ حين قال لمن سأل: من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: «أمك.. ثم أمك.. ثم أمك.. ثم أبوك..».

والعلاقة بين المؤمنين والمؤمنات علاقة أخوة وتناصح ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] كما أن ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

٦ـ هذا فيما يتعلق بحديث القرآن عن المرأة عامة أما حين يعرض نماذج نسائية محددة فإننا نجد فيها الجيد الحسن وفيها الرديء، وذلك كشأنه في الحديث عن نماذج محددة من الرجال.

النماذج النسائية في القرآن تسعة عشر وهن:

١ـ حواء ٢ـ امرأة عمران ٣ـ مريم ٤ـ سارة زوجة إبراهيم ٥ـ امرأة العزيز ٦ـ نسوة المدينة في عهد يوسف ٧ـ أم موسى ٨ـ أخت موسى ٩ـ امرأة فرعون ١٠و١١ـ ابنتا شعيب ١٢ـ ملكة سبأ ١٣ـ امرأة نوح ١٤ـ امرأة لوط ١٥ـ السيدة عائشة ١٦ـ السيدة زينب ١٧ـ نساء النبي ١٨ـ المجادلة ١٩ـ امرأة أبي لهب.

نلاحظ أن اثنين من هذه النماذج يمثلان نموذجاً جماعياً: نسوة المدينة في يوسف ـ ونساء النبي. وبعد تأمل هذه النماذج التسعة عشر لا نجد الإدانة الواضحة في القرآن إلا في ستة منها وعلى مستويات:

المستوى الأول: إدانة كاملة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠] وامرأة أبي لهب ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤].

المستوى الثاني: إدانة على ذنب ثم التزكية للتوبة منه: حواء ـ وامرأة العزيز.

المستوى الثالث: إدانة خفيفة مع توجيه للتوبة: زوجات النبي ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وأما النماذج الباقية فالحديث عنها حافل بالتكريم والاحترام.

٧ـ فلنبدأ باستعراض هذه النماذج والتقاط ما توحي به من خصائص نفسية لشخصية المرأة.

١ـ **أول نموذج** للمرأة يرد ذكره في القرآن هو حواء ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥ـ٣٦]. شخصية حواء تُعرَض عرضاً سريعاً لا يظهر فيه تمييز واضح

بين آدم وحواء. التمييز الوحيد هو أن آدم خُلق أولاً: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . ﴾ [النساء: ١] ولا توجد آية واحدة تدل أن حواء هي التي بدأت بالمعصية أو أغرت آدم بها خلافاً لما يرد في العهد القديم.

٢ـ النموذج الثاني هو امرأة عمران: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . . ﴾ [آل عمران: ٣٣ـ٣٧] العرض يبدأ بتقرير الاصطفاء والرفع والتمييز لأسرتين كريمتين على العالمين. والاصطفاء على العالمين قد يعني المعاصرين لهم وهذا مشابه لما قال عن بني إسرائيل ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧] أي المعاصرين لهم عندما كانوا في أوج صلاحهم وطاعتهم لله. وكما نعلم إن من السنن التي وضحها القرآن أن عمل الله سبحانه يأتي بعد عمل العبد كي يبذل العبد جهده. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] فلما نجح إبراهيم في الابتلاء جعله الله للناس إماماً. وهكذا نفهم الاصطفاء. وتمضي الآيات في

تحديد إحدى الشخصيات المعنية بهذا الاصطفاء وهي امرأة عمران. إن اصطفاء الأسرة معناه وجود أبوين ناجحين.. ونجاح الأبوين يظهر في ذريتهما التي تأتي أفضل منهما. فالنجاح في التربية هو أن تربيَ أفضل منك. وهكذا تأتي مريم البتول ثمرة رائعة لشجرة مميزة.. والقرآن هنا يخص امرأة عمران بالذكر دون زوجها.. !! وكأنه ينسب معظم الفضل والنجاح مع الذرية إلى الأم.. حقاً إنه لدور عظيم لامرأة عمران يعرضه القرآن لوحة تشع بالنور أمام العالمين.. إنها نموذج للمرأة التقية التي تذوقت حلاوة الصلة مع الله وعظمة الحياة في سبيله فنذرت أغلى ما عندها ـ جنينها ـ ليعيش في خدمة دين الله. وفي الوقت الذي يتمنى فيه الناس لأولادهم المراكز الدنيوية العليا والمال والجاه.. تمنت هذه المرأة لولدها أن يعيش لله.. محرراً من كل أثقال الدنيا وعبودياتها.. ناذراً نفسه لهداية الناس إلى الخير. لقد أدركت أن الحياة لله هي الحرية.. وأن العالم من حولها محتاج إلى نماذج للخير لتنقذه من التردي وراء الأهواء والشهوات وتأخذ بيده في الارتقاء إلى الملأ الأعلى..

ولا بد أن نستحضر الظروف التاريخية التي كانت تحيط بهذه المرأة. فهي امرأة من بني إسرائيل الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت متنقلين بين مصر وفلسطين تحت هيمنة الحكم الروماني الباذخ الطاغي البعيد عن الله. والعظيم في هذه المرأة أنها أحست أنها تعيش في مجتمع

يحتاج إلى إنقاذ فنذرت وليدها ليقوم بهذا الدور المليء بالجهاد والمعاناة.. فهي على يقين من أن هذا سيكون أسعد وأربح لابنها من أي دور آخر. إنها امرأة في قمة الارتقاء الأخلاقي.. ومع ذلك فهي امرأة بسيطة تطغى عليها مفاهيم ثقافتها ومجتمعها أحياناً فهي تظن أن هذا الدور العظيم لا يقوم به إلا الرجال ولهذا تصاب بخيبة أمل حين يأتي مولودها أنثى.. فتناجي ربها بحيرة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ..﴾ [آل عمران: ٣٦] ويغيب عنها علم الله الذي اختار أن يكون المنذور له أنثى.. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦] وتتابع كلامها الحائر ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] فكيف أفي بنذري لك يا ربي.. ؟! إن من يُنذر لله كان يُسلّم فيما يبدو لكهنة المعبد يربونه على طاعة الله ويهيؤونه لخدمة دين الله.. وكان هذا خاصاً بالذكور دون الإناث.. ولقد احتاج الأمر إلى ما يقارب ألف سنة كي يدرك الناس أن المرأة أيضاً يمكن أن تخدم دين الله.. ولعل نشوء أديرة للراهبات في العالم المسيحي بعد ذلك قد جاء متأخراً ومتأثراً بالروح العامة التي أشاعها القرآن عن كرامة المرأة ودورها الذي لا يقل عن دور الرجل[1].. والله أعلم.. وهو موضوع يستحق أن تخصص له دراسة تاريخية لا أدعي أنني قمت بها.

---

(١) وإن كان القرآن لا يقر أسلوب الرهبنة الذي اتبعه النصارى في تخصيص رجال ونساء لخدمة الدين.

نعود إلى امرأة عمران التي أحست وكأن نذرها لن يقبل فتوجهت إلى الله طالبة أن يحمي ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلن قبولها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وهو ليس مجرد قبول بل إنه قبول حسن... وتعهد برعايتها وإحاطتها بالتربة الصالحة والبيئة الطيبة كي تنبت وتترعرع على أحسن ما يمكن في الجسم والنفس ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣] وهكذا تبين الآيات أن اختيار الأنثى هنا كان مقصوداً لتصحيح المفاهيم التي تنشرها الثقافة العوراء التي لا تبصر الحياة إلا جنساً واحداً ودوراً واحداً. وقبل أن نترك هذه الشخصية نتساءل: لَمَ لم يصرح القرآن باسم هذه المرأة؟ ونلتفت إلى باقي الشخصيات فنجد أن القرآن لم ينص إلا على اسم واحدة من هذه الشخصيات النسائية وهي مريم.. أما الباقيات فعرّفن بالرجل المهم في حياتهن: امرأة عمران ـ امرأة إبراهيم ـ أم موسى ـ أخت موسى ـ نساء النبي... وحتى ملكة سبأ لم يصرح باسمها.. إنها ظاهرة تستحق أن نقف معها برهة.. سأسمح لنفسي أن أضع بعض الافتراضات التي تحتاج إلى تمحيص وتسديد وعسى أن يقدم غيري تفسيراً أفضل.

١- عودنا القرآن أن يهتم بالحادثة أكثر من تحديد أسماء شخصياتها.. انظر مثلاً ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ..﴾ [البقرة: ٢٥٨].

35

قد يقول قائل: هذا يوحي بتحقير هذه الشخصية.. ولكن القرآن يكرر هذا مع شخصيات أخرى. مثل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا..﴾ [البقرة: ٢٥٩] ومن المعروف لدينا أن المعنيّ بالآية هو العزير الذي عُرِف بالصلاح. كذلك في حديثه عن الخضر أهمل اسمه وقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]. وهذا في القرآن كثير: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]. ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ..﴾ [البقرة: ٢٤٣]. إن القرآن يجرد الحادثة من الزمان والمكان ومن أسماء الشخصيات في كثير من الأحيان ويهتم بالأدوار والأعمال التي حدثت ويبرز العواقب والنتائج. وكأنه يوحي لنا أن الحادثة عيّنة يمكن أن تتكرر في كل زمان ومكان وعليكم أن تدركوا سنتها وتتوقعوا عواقبها.

٢ـ ومع ذلك فقد حددت أكثر الشخصيات النسائية في القرآن بأسماء رجال.. فهل نعتبر هذا من باب الإيجاز في التعريف بأن تنسب إلى رجل معروف..؟

٣ـ أم أنه من باب مخاطبة الناس بأساليبهم المألوفة. فقد درج الناس حتى الآن على التعريف بالفتاة على أنها ابنة فلان أو من آل فلان والتعريف بالسيدة أنها زوجة فلان أو أم فلان.

هذا العرف الاجتماعي السائد عالمياً حتى الآن له دلالته. فالرجل أولاً والمرأة ثانياً.. والرجل هو الأساس والمرأة تابع له. هذه نظرة الناس إلى الجنسين حتى الآن.. وإن كنا حين نعود إلى منطق الواقع نتفق جميعاً على ضرورة كل جنس للآخر فلا يستطيع أحدهما أن يؤدي دوره إلا بمساعدة الآخر.

ومع ذلك فإن القرآن يتعامل مع هذا العرف السائد على أنه من الشكليات الدارجة. وحين يتحدث عن دور المرأة يحررها من هذه التبعية ويعرض علينا ألواناً من الإبداع الأنثوي في مجالات إنسانية راقية نحن بصدد تتبعها في هذا البحث.

٣ـ **النموذج الثالث** هي مريم بنت عمران.. وقد أطلق اسمها على سورة خاصة. وذكرت في سور كثيرة من القرآن منها: آل عمران والنساء والمائدة والأنبياء والمؤمنون والتحريم. فقد ضرب بها المثل للذين آمنوا في آخر سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ٦٦]. ولقبت بالصديقة في سورة المائدة: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وعرض جزء من قصتها في سورتي آل عمران ومريم. وأول القصة في آل عمران حيث كانت نذر أمها لخدمة دين الله فقد اختارها الله لهذا الدور ليصحح مفاهيم

الناس وقال عنها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فبإمكانها أن تؤديَ هذا الدور على أحسن وجه. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] فقد هيأ لها أفضل غذاء فكري واجتماعي حين أحاطها بالبيئة الطيبة. فالذين قاموا على تربيتها كانوا في قمة المجتمع فكرياً ودينياً. ويكفي أن يكون أحدهم النبي زكريا ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] فلما شبت رأت من كرامة ربها ما جعل زكريا وهو نبي يغبطها على منزلتها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ..﴾ [آل عمران: ٤٢] لقد بلغت مريم منزلة قريبة من منزلة الأنبياء فلقد كلمتها الملائكة وبشرتها باصطفاء الله مرتين ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] هل نستطيع أن نقول أن الاصطفاء الأول هو اختيارها لتكون منذورة لله.. والثاني اصطفاؤها لإظهار معجزة الله في الخلق حين جعلها أماً لعيسى من غير أب ؟ أي اختيارها لينفخ الله فيها من روحه. والله أعلم. ولا ننسى العلاقة بين عمل الله وعمل العبد.. فلقد اجتهدت مريم في العبادة فطهرها الله فكرياً ونفسياً واصطفاها. وزيادة التفوق تستوجب زيادة الواجبات ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] شكراً لله على ما أعطاك وتزكية لما وهبك من قدرات. والأمر هنا

لافت للنظر فقد أُمرت بعبادة فردية ﴿اقنتي لربك﴾ وعبادة جماعية ﴿واركعي مع الراكعين﴾ ألا يعتبر هذا أمراً بالشهود والحضور الاجتماعي حتى لا يساء تطبيق النذر لله..؟ فهي امرأة أولاً وهي منذورة لله ثانياً.. والتفكير في الاعتزال وارد، ولهذا عليها أن تشارك الناس عبادتهم لله.. ولا يكفي أن تعبد الله وحدها بل لابد من السعي لنشر عبادة الله وإيجاد العابدين.. وهذا تصحيح إلهي ثاني في موضوع المرأة ودورها وفي موضوع حقيقة العبادة لله.

ولتتابع القصة في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا..﴾ [مريم: ١٦-١٧] لقد قامت بالعبادة الفردية على أحسن وجه ولكن هذا ليكفى ولا بد للمصلح الاجتماعي من العودة إلى المجتمع بعد الانسحاب منه كما يقول توينبي حين يتحدث عن النخبة المبدعة التي تظهر في المجتمع وتتألم لأوضاعه فتمارس الانسحاب منه فترة للتأمل والبحث عن الصواب ثم تعود لتنشر الحق الذي وصلت إليه.. وهنا كان على مريم أن تعود إلى المجتمع بمعجزة تناسب ذلك العصر وأن تتحمل أكبر المعاناة مع ابنها لهداية الناس وإعادتهم إلى طريق الله. ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] عذراء متبتلة تفاجأ برجل في خلوتها.. فتلجأ إلى الله وتحاول تحريك ضمير الرجل وتقواه بعبارة مؤثرة. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا

رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] وهذه مفاجأة أصعب على نفسها من الأولى ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٠-٢٣] لم تتمالك - رغم إيمانها - من أن تقول ذلك وقد تصورت هول الموقف أمام قومها وكيف ستتهم بدينها وشرفها وطهارتها وهي المنذورة لله..؟! لقد كانت وحيدة في خضم هذه المعاناة الثقيلة.. فجاءها التثبيت من الله إما على لسان عيسى.. أو على لسان أحد الملائكة: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ..﴾ [مريم: ٢٤-٢٧] هنا انتهت مرحلة الانسحاب وبدأت مرحلة العودة إلى الناس لإنقاذهم. لقد أحست مريم بالأمانة العظيمة التي تحملها فبادرت قومها لتؤدي الأمانة رغم ما ينتظرها من هجوم وآلام. وبدأ الهجوم والاستنكار.. وكلنا يعلم ثقل الرأي العام ومدى الضغط الذي يمارسه المجتمع على كل من تسول له نفسه أن يتزحزح قيد أنملة عن أعرافه ومفاهيمه.. ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا..﴾ [مريم: ٢٧] وهكذا يتعجل

الناس الأمور ويبادرون إلى الهجوم قبل أن يتحروا الأمر ويتثبتوا منه. ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] في التقوى والصلاح. ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ..﴾ [مريم: ٢٨-٢٩] تمالكت نفسها أمام شناعة التهمة التي توجه إليها وهي الطاهرة البتول.. وعرفت أن دفاعها عن نفسها وبيانها لكيفية حدوث الأمر لن يجد أذناً صاغية وسط هذا الصخب الجماهيري.. وينبغي أن يتعلم الداعي متى يصمت ومتى ينطلق في البيان فلكل مقام مقال.. وأحياناً يكون الصمت أمام التهم وإهمالها أبلغ من مناقشتها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] وتأتي المفاجأة التي تلجم الأفواه ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

تلك هي مريم التي ضُربت مثلاً للمؤمنين في الطهارة والخلوص لله وحسن الاستسلام لأمره.. والشجاعة والإقدام في أداء الأمانة مع سكينة وحكمة تحيط الشخصية بهالة من البهاء والروعة. حقاً لقد نجحت امرأة عمران في أنها أنجبت من هي أعظم منها. وهذا هو النجاح الحقيقي للآباء.

٤- النموذج الرابع زوجة إبراهيم. والعرض سريع يحدد بعض معالم الشخصية في ضربات سريعة من ريشة الفن القرآني. انظر مثلاً حين يتحدث عن إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ

32

نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩-٧٣] وفي سورة أخرى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠]

إنها امرأة كريمة مضيافة ﴿قائمة﴾ على خدمة ضيوفها. هاشة باشة بهم ﴿فضحكت﴾ وطيب اللقاء للضيف أعظم عنده من القِرى..

ويمكن أن نستوحي أمراً آخر من ضحكها واستبشارها فلقد حدث هذا عندما قالت الملائكة ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ١١] فاستبشرت بأن الملائكة جاءت لعقابهم.. وهذا دليل على شهودها لما يجري من أحداث في زمن لم تكن فيه وسائل الإعلام تأتي بالأخبار ولا المواصلات تساعد على سرعة نقلها.. سارة إذن حريصة على الحضور والشهادة.. فهي لم تختف وراء خدرها تاركة زوجها مع ضيوفه كما يتوقع عامة الناس من المرأة التقية (أن لا ترى الرجال ولا يرونها)..!! إنها زوجة نبي والأنبياء يعرفون أهمية حضور المرأة وشهودها.. ألم يأمر رسول الله ﷺ النساء المؤمنات بالخروج إلى صلاة العيدين (ليشهدن الخير ودعوة المسلمين) فلما بشروها بغلام لم تتمالك نفسها واندفعت في استجابة سريعة مليئة بالانفعال فصاحت

ولطمت وجهها من التعجب وأفلت من لسانها اعتراف قلما تعترف به امرأة ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ١١] وفي الذاريات اعترفت بأمرين صعبين جداً على المرأة ﴿عجوز عقيم﴾؟!

هل نعتبر سرعة الإستجابة والانفعال صفة عامة غالبة في النساء؟ بعض الكتاب ـ بل ربما أكثرهم ـ يقرر ذلك ويعتبره ضرورياً لوظيفة المرأة الطبيعية في رعاية الطفل وحسن التجاوب مع الزوج. فالمرأة مرهفة العواطف وهو أمر جميل فيها. وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الرقة حين شبه النساء بالقوارير. لكن ينبغي أن نلاحظ أن كل صفة أعطيت للإنسان يمكن أن تكون فضيلة ـ حين توضع في مكانها وتعطي نتائج طيبة ـ ويمكن أن تكون رذيلة حين تبلغ حد التطرف وتعطي نتائج سيئة. فالشجاعة تصبح تهوراً أو رعونة ووقاحة إن لم توضع في مكانها.. والكرم والسخاء يصبح تبذيراً وسفاهة في غير موضعه. وهكذا سنرى كيف تحولت الاستجابة العاطفية إلى رذيلة عند امرأة العزيز: وأفقدت نسوة المدينة القدرة على التحكم بالحركة فقطعن أيديهن وهن مأخوذات بجمال يوسف. وهذا ما سنتحدث عنه في:

٥ـ **النموذج الخامس**: امرأة العزيز. و٦ـ **السادس** نسوة في المدينة. وما كان لهن من دور في محنة يوسف. ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ.. ﴾ [يوسف: ٢٣]

هنا تبلغ الاستجابة العاطفية أحط مراتبها فقد تحولت إلى غواية وكيد وسقوط في متاهات الغرائز الدنيا التي تعمي البصيرة وتطمس السمو الإنساني.. بل تسعى إلى تحطيمه غاضبة ناقمة: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا . . ﴾ [يوسف: ٢٣ـ٢٥] وإنا لنعجب من قدرتها على قلب الحقيقة بهذه السرعة..! ثم استدراكها الذي يدل على خوف على يوسف.. هذا الخوف الذي يمثل نقطة ضوء ضعيفة وسط ظلام الشهوات الدامس: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] فهي تشطب من الأذهان فكرة قتل يوسف. وبعد تحقيق بسيط تظهر الحقيقة: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] وكل من يقع تحت سلطان الشهوات يلجأ إلى الكيد السيىء والتدبير لتحقيق مأربه. ولنا وقفة ثانية عند هذه الآية في نهاية البحث بإذن الله. لكن ما يلفت نظرنا الآن هو هذا الأسلوب الفاتر الذي عالج به العزيز الموقف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ؟!! [يوسف: ٢٩] هكذا يمرر الموقف بكل بساطة ؟! إن لنا أن نستوحي من ذلك أشياء كثيرة: ـ فقد يوحي هذا الموقف

بضعف المستوى الأخلاقي في مجتمع مصر في ذاك الزمن. أو ضعف الوازع الأخلاقي في القصور الملكية.. أو ضعف شخصية العزيز.. أو نقص في كفاءاته يجعله لا يشدد النكير على زوجته بل يجد لها مخرجاً. ولعله في أعماقه يجد لها عذراً إذ حُرمت من مشاعر الأمومة ـ هكذا يبدو من الآيات السابقة ـ وما تخلفه من تسامٍ وانشغالٍ يملؤ كل فراغ. وطبعاً لا تحل المشكلة بمثل هذه (الطبطبة).. بل إن امرأة العزيز تزداد إصراراً ومحنة يوسف تشتد بتدخل عناصر أخرى يسميهم القرآن ﴿نسوة في المدينة﴾ ويمكن أن نقول عنهن نساء الأعيان والطبقة المترفة في البلد. ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ... ﴾ [يوسف: ٣٠ـ٣١] ترى ما نوع هذا المكر؟ يبدو أنه تلطيخ سمعتها والخوض في خبرها مع يوسف في كل مجلس. إنهن مجموعة من النساء الفارغات اللواتي لا يشغلهن إلا القيل والقال والخوض في أعراض الناس وتناقل الإشاعات. وهنا نتساءل: هل هذا العيب خاص بالنساء؟! إذا أردنا أن تكون الإجابة من القرآن رأينا أن القرآن يدين طبقة المترفين كلها رجالاً ونساءً ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤٥ـ٤٦] فلكل جنس أخطاؤه ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] وحين يُسأل المجرمون في الآخرة ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

﴿ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢] نعود إلى امرأة العزيز التي ترد على كيدهن بكيد أعظم: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . .﴾ [يوسف: ٣١] إنها سرعة الاستجابة العاطفية إلى درجة تعمي البصر. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وقد عبرن عن إعجابهن بأسلوب كريم فهن مأخوذات بجلال فوق الشهوات البشرية في شخصية يوسف. وهن في ذلك أرقى إحساساً من امرأة العزيز التي تندفع في تشف وتبجح ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] حقاً إنه لموقف غريب ؟! هذا التبجح الوقح. . لا ريب أن هذه المرأة كانت تعيش في مجتمع قد بلغ الأوج في التفسخ. . وتستطيع فيه مثل هذه الغاوية أن تتسلط وتنفذ وعيدها بيوسف. . ولكن مالذي حدث بعد سنوات من سجن هذا الطاهر البريء. . ؟ هل تغير المجتمع حتى تغيرت المواقف عندما أصدر الملك أمراً بإطلاق سراح يوسف فرفض يوسف أن يخرج من السجن حتى يعاد التحقيق في قضيته لتثبت براءته. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] وكلام يوسف هنا يستدعي التساؤل: هل كان لهؤلاء النسوة دور في سجنه حتى أنه يذكر هنا كيدهن. . ؟ أم أنه لم يرد أن يخصص امرأة العزيز بالذكر وفاء

منه للبيت الذي رباه ؟! الله أعلم. المهم أن التحقيق قد أسفر عن موقف مختلف عما سبق منذ سنوات وخاصة بالنسبة لامرأة العزيز ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١] وهن بحسب ظاهر الآيات صادقات في دفاعهن عن أنفسهن. وهن يشهدن الآن ببراءته.. فلعل كيدهن كان في كتمان هذه الشهادة عند سجنه.. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] لقد اعترفت بخطئها وبرأت يوسف وأعلنت ندمها واستغفارها. أعود لأتساءل ما الذي غيّر الموقف..؟ هل شُفي المجتمع من تفسخه خلال بضع سنين ؟ طبعاً هذا غير معقول.. لابد أنها صحوة الضمير في قلب إنسانة عذبها ظلمها لهذا البريء خلال بضع سنين.. والمرأة لا تستطيع أن تتجاهل رقتها ورحمتها طويلاً.. وهكذا نرى أن شخصية امرأة العزيز قد صورت أبعاد النفس الإنسانية في لحظات الضعف وومضات الإشراق ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] ففي لحظات الضعف تدنت إلى أسفل سافلين وفي ومضات الإشراق ارتفعت إلى أحسن تقويم حين يقف الإنسان تائباً معترفاً بخطئه يرجو رحمة ربه.

بقيت نقطة أخيرة وهي إطلاق وصف (سيدها) على العزيز ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] وهي المرة الوحيدة في القرآن التي يعبّر بها عن الزوج أنه سيد.. وأظن أن هذا من باب استعمال المصطلحات السائدة وليس لتقرير حقيقة العلاقة بين الزوجين.. وأكبر دليل أن العزيز لم يمثل دور السيد في الموقف المعروض بل كانت المرأة هي سيدة الموقف واستطاعت أن تنفذ وعيدها بسجن يوسف. وهذا شبيه باستعمال لقب (العزيز) السائد في ذلك العصر وتلك البلاد.

٧و٨ـ النموذجان الآن هما: أم موسى وأخته. تتحدث سورة طه عن موسى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٣٨ـ٤٠] وفي سورة القصص ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[القصص: ٧ـ١٣].

والقرآن يقرر هنا أن الله أوحى إلى أم موسى. والوحي على أنواع منه الإلهام الغريزي كما أوحى إلى النحل. ومنه الإيحاء الخفي إلى النفس بفكرة مثل وسوسة الشياطين ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ٦]. ومنه الوحي إلى الأنبياء.. سواء بواسطة الملائكة أو بالرؤى الصادقة أو بإلقاء الأمر في النفس... والوحي الذي تلقته أم موسى هنا مشابه لما حدث مع الأنبياء.. لأن فيه الأمر بإلقاء موسى في اليم مع تبشيرها برده إليها وجعله من المرسلين. ولا يمكن أن يكون كل هذا مجرد إلهام وصلت إليه بعد تفكير واجتهاد في كيفية حماية موسى. وهكذا أصبح لدينا الآن عدد من النساء اللواتي تلقين الوحي أو كلمتهن الملائكة: امرأة عمران ومريم وسارة وأم موسى. والآيات تصور لنا حنان الله البالغ على أم موسى التي تكاد نفسها تتمزق بين حرصها على قرب ابنها والرغبة في حمايته بإلقائه في اليم.. ويصل التعبير القرآني إلى القمة في دقة وصف

مشاعرها ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ . . ﴾ [القصص: ٢٨] إنه تعبير غير قابل للشرح . . حقاً إن الأمومة شيء كبير وعجيب في كيان المرأة . . حتى أنها تحس عندما تُحرم منه وكأنها فُرّغت من كيانها ومعنى وجودها . . الأمومة هي أقوى غريزة عند المرأة وهذا أمر طبيعي لإعطائها القدرة على الإنجاب والتربية لبقاء الإنسان وترقيته ولا تقف أم موسى حائرة تنتظر الفرج من الله تعالى . . رغم أن الله بشرها بعودته فهي تؤمن أن قدر الله يتحقق من خلال سعي الإنسان وتخطيطه . . ولهذا ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ٢٨] أي تتبعي أثره . وهو موقف يدل على مستوى جيد راقٍ من الوعي الديني . وهنا تبرز شخصية أخت موسى . . ولا نعرف عنها إلا ما نستوحيه من خلال آيتين : فهي فتاة بارعة عرفت كيف تتبع نظرها وراء تابوت أخيها . . . وتلاحق الأمر بهدوء دون أن يحس بها أحد . . ثم ترسم الخطة لإعادة أخيها إلى البيت دون أن تثير ريبة في نفوس أهل القصر . . فمن المؤكد أنها لم تتدخل مباشرة وتعرض اقتراحها أو خدماتها إلا بعد أن ضمنت أن لا تثير الشكوك . . كيف ؟ طبعاً نحن لا ندري لأن القرآن لم يقص علينا . . ولكنها استعملت ذكاءها وكيدها للخير . . أخيراً كان يمكن أن ينمو موسى بعيداً عن أمه محاطاً بحنان امرأة فرعون التي أحبته ووجدت فيه تحقيقاً لأمومتها . . ولكن الله يصنع ذلك إكراماً لأم موسى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ

عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ . . ﴾ [القصص: ١٣] طبعاً هناك مقاصد إلهية أخرى. . ولكن الله يضع على رأسها إقرار عين هذه الأم. . حقاً إن تكريم الأم وإسعادها شيء عظيم. . !

٩ـ والنموذج التاسع: امرأة فرعون ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩].

امرأة فرعون هنا امرأة متعطشة للأمومة. . لم تستطع حياة القصور أن تروي ظمأها الأنثوي السامي للطفولة. . فما تكاد عينها تقع على الوليد اللقيط المحروم من ضمة أمه حتى تطير نفسها شعاعاً وتبادر فرعون بتوسلاتها. . تغريه بتبني الوليد. . وتستمهل الحرس كي يعطوا المهلة لفرعون أن يرى الوليد ويفكر في اقتراحها. ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩] وهكذا أوقفت عدوان فرعون بمخاطبته بأسلوب المنفعة والبراعة في الإقناع تكمن في معرفة مفتاح الشخصية التي تخاطبها. إنها لقطة وهاجة بدفء نبع من حنان الأمومة ينبثق من بين الأسوار القاسية والرماح المشرعة. . فيعطي الصورة تألقاً وهاجاً.

وأجدني أتساءل: ترى هل امرأة فرعون هذه هي نفسها التي ضرب الله بها مثلاً للذين آمنوا. . ؟ ليس لدي مرجع دقيق يثبت ذلك. . لكن إحساسي يقول هي نفسها. على أية حال يمكننا أن

نعتبر اللوحة الثانية موقفاً فريداً بذاته يستحق منا تقديراً خاصاً..
﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

أرأيت إلى هذه المرأة التي أحيطت بمظاهر النعيم المادي وفُتحت لها الدنيا على مصراعيها واختارها القدر لتكون ملكة مصر وزوجة لرجل يعتبر من أعظم ملوك زمانه..تحيا آمرة ناهية منعمة في قصرها والجنات من حولها.. لكنها تضيق ذرعاً بكل ما حولها وتحس أنها أسيرة مكبلة تود الانطلاق إلى الملإ الأعلى.. لقد تذوقت حلاوة الإيمان بالله ولذة مناجاته والصلة به.. فرأت القصر سجناً لا يطاق.. وفرعونَ طاغيةً جباراً قد تراكمت سيآته من حولها فأحالت كل بهجة ظلاماً كالحاً.. فتوجهت إلى ربها ضارعةً: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] أنجو إليه من هذا السجن ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] فإني لم أعد أطيق صبراً على أعماله المشينة.. إنها تلاحقني وتعذبني أينما توجهت..وأخشى أن اؤاخذ على بقائي وشهودي لها.. ولكن ما حيلتي يا رب.. إنك تعلم أني أبرأ إليك من فرعون وعمله..

أشهد لقد سمعت عدداً من نساء عصري يتضرعن بمثل هذا الدعاء وهن مغلوبات على أمرهن.. يرزحن تحت وطأة الظروف الاجتماعية العفنة التي فرضتها ثقافة التخلف لاكما يقول بعضهم من

أن أحكام الشريعة هي المسؤولة. وهذا ما سأحاول بيانه عند الوقوف على الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة في غير هذا الموضع بإذن الله.

أعود لأتساءل ما معنى أن يضرب الله مثلاً على الكفر والإيمان بنماذج نسائية..

١٠ و١١ـ النموذجان هما: امرأة نوح وامرأة لوط. وقد أشار إليهما القرآن في عدد من السور إشارات سريعة.. أوضحها ما ورد في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] والسؤال هو لماذا اختار الله نماذج نسائية يضرب بهن المثل على الكفر والإيمان؟ قد يتقبل الناس أن تكون نماذج الكفر من النساء.. لكن أن يضرب المثل على روعة الإيمان بنماذج نسائية.. فهو أمر غريب على الناس. ألا ترون في ذلك ثورة مفاهيمية لتصحيح زاوية النظر (إلى دور المرأة ومكانتها) عند الرجال والنساء؟! طبعاً نحن لا نهمل ارتباط الآيات بما قبلها في سورة التحريم. وكونها تأتي بمعرض الموعظة لنساء النبي.. فالتبعة في الآخرة فردية ولا يغني النبي عن زوجاته شيئاً كما حصل لزوجة نوح وزوجة لوط ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] ولكن الآيات لا تقيد بخصوص السبب.

26

كذلك يمكن أن نقول أن الله يريد أن يبين أن الإنسان ليس مرغماً على الخضوع لظروفه فامرأة فرعون كانت ظروفها تتطلب منها مجاراة فرعون في دينه وعمله.. لكنها تمسكت بحقها الإنساني باختيار الدين الذي اقتنعت به وضحت في سبيل ذلك بالمال والجاه والسلطان. بينما أتيحت لامرأة نوح وامرأة لوط أفضل الظروف للإيمان في بيت النبوة.. لكنهما اختارتا الكفر.. تلك هي إرادة الله في عدم إكراه الإنسان على الإيمان، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

هل نستطيع أن نخرج من هذه الوقفة بإحدى الصفات النفسية للمرأة؟ وهي الحماس الديني (العقائدي) فهي حين تقتنع بدين تعطيه روحها وتتحدى في سبيله كل شيء.. ألم تكن أول من آمن بمحمد ﷺ امرأة وهي خديجة ـ رضي الله عنها ـ وأول من استشهد في سبيل الله امرأة وهي سمية..؟! وهل لطبيعتها العاطفية أثر في ذلك..؟

١٢ و١٣ـ النموذجان هما: ابنتا شعيب. ويأتي ذكرهما مرة واحدة في القرآن في سورة القصص: وذلك عندما خرج موسى من مصر خائفاً حتى وصل إلى مدين فالتقى بهما: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ
إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ
لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ
حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٣ـ٢٧].

لنحاول أن نلتقط الصورة التي ترسمها هذه الآيات:

هاهما فتاتان اضطرتهما الظروف للقيام برعي الأغنام وسط مجتمع فقد نخوة الرجال في مساعدة المرأة إنهما واقفتان تذودان غنمهما حتى لا تختلط بأغنام القوم.. تنتظران أن ينتهي جميع الرعاة من سقي أغنامهم. إنها صورة وضيئة للفتاة الشريفة التي اضطرتها الظروف إلى العمل في مجتمع تحكمه شريعة القوة. فهي تؤدي عملها بصبر وعفة وحياء فلا تزاحم الرجال ولا تطلب مساعدتهم ولا تحتج على أثرتهم..

يرى موسى هذا المشهد فيتعجب.. إنه لا يتصور أن يحدث أي شيء من ذلك للفتاتين.. ولا يتمالك نفسه من التدخل ﴿ما خطبكما؟﴾ وبعبارة وجيزة عرضتا مشكلتهما: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] ومع أن موسى غريب عن

البلد ومطارد لكنه بما عرف عنه من نخوة وسرعة في تصحيح الخطأ يبادر إلى مساعدتهما. وهنا تنفرد إحداهما بإتمام معالم الصورة.. جاءت يكللها الحياء لتستدعي موسى بعبارة موجزة وافية ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] وبعد أن يقابل أبوها موسى ويسمع منه قصته.. تنتهز الفتاة فرصة لتناجي أباها معبرة عن إعجابها بأسلوب ملفوف لطيف يتناسب مع حياء الفتاة العذراء وعفتها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وهي هنا قد وجدت حلاً مشتركاً يناسب موسى الغريب الذي يحتاج إلى العمل والمسكن. ويناسب وضعهم الذي يحتاج إلى مساندة رجل قوي أمين. والفتاة على قدر جيد من الفطنة والحكمة فهي تعرف شرطي النجاح في العمل: القوى الأمين أي: القدرة والإرادة.. وهي تعرف كيف تقنع أباها وكيف تنقل إليه إعجابها بأسلوب مهذب. يفهم الأب رسالة ابنته فيعرض على موسى أن يزوجه إياها ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ..﴾ [القصص: ٢٧] حقاً إنه لمهر باهظ: أجرة ثماني سنوات أو عشر..! وهو أمر راجع إلى العرف الاجتماعي السائد في ذلك العصر أو ذاك البلد.. أو أن ظروف موسى والرجل اقتضت ذلك.

نعود إلى صورة المرأة في هذا المقطع لنرى حياء الأنثى وصبرها وقدرتها على التلطف والإقناع للوصول إلى هدفها.

١٢ـ النموذج الرابع عشر: ملكة سبأ، ويتحدث القرآن عنها مرة واحدة في سورة النمل: فهاهو الهدهد يحدث نبي الله سليمان عن سبب غيابه:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل: ٢٢ـ٢٦].

يقص الهدهد ما رأى في سبأ.. ويعبر بأن ملكتها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣] بهذا الشمول، فقد جمعت هذه الملكة من الصفات الكاملة والاقتدار المادي ما لم يفصل في شرحه الهدهد، وإنما أعطاه عنواناً موجزاً ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣] وبنبرة الآسف المتعجب يقول: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ.. ﴾ [النمل: ٢٤] فمن الغريب أن يكونوا على مثل هذه الحال ولا يهتدوا إلى الله الذي يملك كل شيء وأعطاهم من كل شيء..

وينتهز سليمان فرصة التحقيق مع الهدهد لأداء دوره في دعوة هؤلاء إلى الله وهدايتهم إلى الحق: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ

تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

وهنا يقفز بنا المشهد إلى بلاط الملكة لنكشف بعض معالم هذه الشخصية.. أيها القارىء الكريم قف صامتا وتأمل بانتباه فإنك في بلاط ملكة ليست كالملوك.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]. وهذا أول ما يظهر من فطنتها وحكمتها.. فقد عبرت بأن الكتاب كريم رغم أن ما فيه يخالف دينها ووجهة نظر قومها.. إن لديها القدرة على سماع الرأي الآخر واحترامه حتى ولو لم تقنع به بعد. ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١] تلخيص رائع للكتاب وفحوى الدعوة فيه.. فهو تعريف بالله وضرورة الاستسلام لدينه والإيمان والتسليم لنبيه.. وبعد أن أطلعت أهل الرأي في بلاطها على فحوى الكتاب، طلبت منهم أن يشيروا عليها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢] وهذا موقف عظيم يعتبر غريباً على ملوك تلك العصور.. فالشورى (والديموقراطية) مفاهيم تقدمية يحاول ملوك عصرنا أن يتمثلوها.. ولكن هذه الملكة كانت تجعل من الشورى أساسا لحكمها ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].. فانظر إلى ما قدموا من آراء ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣] إنه منطق الرجال في ذلك العصر: القوة والحرب والسلاح..

ومع ذلك فهم يعرفون حكمتها وسداد رأيها فيقولون ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] وتعرض الملكة وجهة نظرها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] إنها لا تعرف حقيقة سليمان وتحسبه ملكاً مثل الملوك.. وهي امرأة قد درست التاريخ وأحوال الملوك حين يفتحون البلاد ويدخلونها عنوة.. ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] إنها سنة دأب عليها الملوك والحكام.. ومارسها الاستعمار الغربي في عصرنا.. وما زالت تمارسها الدول التي تسمي نفسها (متقدمة) حتى الآن.. المهم أن ملكة سبأ تتخذ إجراءً تمتحن فيه حقيقة سليمان فإن كان يريد المال فستعجبه الهدية المرسلة إليه[1] ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٥-٣٦] وهنا يلجأ سليمان إلى التهديد بالقوة منطق ذلك العصر ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]. وهنا لابد أن نقول بأننا نحن أهل هذا الزمان يصعب علينا أن نتقبل هذا الموقف من سليمان ونأسف له..! فالقرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة قد ألغى هذا

---

(١) أو أنها أرادت أن توحي بالمهادنة وفتح باب للحوار الودي معه بإرسال هدية له.

23

الأسلوب في الدعوة حين قال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. لكنها اللغة التي يفهمها عصر سليمان. المهم في الأمر أن الملكة قد عرفت أن سليمان لا يريد المال.. ماذا يريد إذاً؟ لابد أن تلقاه وتتحاور معه لتعرف قصده.. إنها تستبعد اللجوء إلى الحرب والسلاح لأنه الاختيار الأسوأ لبلدها.. وإن ما لديها من الحكمة والروية يجعلها تحسب حساباً للعواقب البعيدة المدى.. ويمكن أن نقول أيضاً أن فطرة الأنثى تساعدها على ذلك، فالمرأة تؤثر السلام والموادعة وتكره الحرب والعنف. ويبدو أنها أرسلت لسليمان تخبره أنها قادمة إليه وهو يقول لجنوده ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨]. فهو يريد أن يفاجئها بمظاهر تشعرها بمدى ما وصل إليه من القوة والتمكين. وهي براهين ذلك العصر على صحة العقيدة. فتتنافس الجنود في ذلك حتى قال ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠] أي نقله بسرعة الضوء ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ [النمل: ٤٠-٤٢] وهذا من دقة ملاحظتها وموضوعيتها فلم تجزم بأنه هو للتغيير الذي أحدث فيه ولاستبعاد وصوله إلى سليمان ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٤٢] يبدو أن هذا من كلام سليمان. وما زالت الملكة متأثرةً بدين قومها فلم تسارع

بالتسليم لدين سليمان. . ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٣] ويأتي البرهان الثاني - بعد برهان العرش - من نفس النوع ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]. قد لا نفهم نحن كيف اقتنعت ملكة سبأ بصحة دين سليمان. . إذ يخيل إلينا أن البراهين المقدمة غير كافية. ولكن حتى الحضارة الغربية المعاصرة تريد أن تقنع العالم بأنها على حق بكل شيء بدليل ما عندها من قوة وتمكين. . ولكننا ندرك الآن أن عالم الأشياء يتسخر لمن يعرف قانونه ويستثمره بغض النظر عن إيمانه وكفره المهم في الإمر أن ملكة سبأ قد نالت ثمرة سعيها بالاهتداء إلى ما ينقصها من الدين الحق. لقد انتصرت على الباطل في نفسها واعترفت بعظمة الكشف الجديد الذي وصلت إليه ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤] ولم تقل أسلمت لسليمان فهي امرأة تعرف قدر نفسها وتعرف أن الإسلام الذي عُرِض عليها لله لا للأشخاص فهي وسليمان على قدم المساواة أمام الله ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤] فكيف ترى هذا النموذج؟! إنه مثال رائع للحكمة والروية والتبصر بالعواقب والرغبة الصادقة في السلام واحترام الآخرين. وإن صورتها في المقطع القرآني أكثر تألقاً من صورة سليمان الذي بز عصره بما ملك من حضارة مادية. . لكنها هي مثلت نموذجاً فكرياً وأخلاقياً فريداً.

22

١٥- **النموذج الخامس عشر السيدة عائشة**: عندما نزلت براءتها من الإفك في سورة النور ولم تصرح الآيات باسمها وإنما ذكرت بعض صفاتها وبشكل يوحي بحكم عام أكثر من أن يحدد معالم شخصية معينة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] وصفت بالإحصان والعفة والغفلة عن خبث الذين أشاعوا الإفك فهي بريئة إلى درجة لم يخطر في بالها أن يتكلم الناس عنها بذلك. ومما لاشك فيه أن القرآن لا يعتبر الغفلة من الصفات الممدوحة في المرأة لكنها إشارة إلى أن الغفلة من أسباب المشكلة وعلى المؤمنات أن يكن أكثر انتباهاً وحذراً فلا يتركن للخبيث ثغرة. ويصفها بعد ذلك بنفس الأسلوب العام ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] فهي الطيبة المبرأة مما افتريَ به عليها. ثم يأتي ذكرها مع نساء النبي عامة في صورة جماعية ومع حفصة في سورة التحريم.

١٦- **النموذج السادس عشر السيدة زينب**: فقد نزلت فيها آيات من سورة الأحزاب:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أحد الأخبار الواردة في نزول الآية تقول: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فأبت ـ لعل ذلك لأنها خير منه حسباً ـ فقال ﷺ: «بلى أنكحيه» قالت: يا رسول الله أؤمر في نفسي؟! فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية على رسول الله ﷺ. قالت قد رضيتَه لي يارسول الله لي منكحاً ؟ قال ﷺ: «نعم» قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي[1].

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقرر المساواة العملية بين المؤمنين بهذا الزواج. ولكن النفس كانت حديثة عهد بأعراف الجاهلية فاحتاج الأمر إلى مجاهدة النفس وترويضها حتى تنصاع. وتبقى الآية أعم من سبب نزولها. فهي تقرر قاعدة هامة في حياة المؤمن وهي أن الإيمان هو الطاعة لله ورسوله. وبعد أن زوّج النبي ﷺ زينب لزيد بسنة أو أكثر أخذ زيد يتردد على رسول الله ﷺ شاكياً منها ويقول بأنه يريد فراقها.. وكان الرسول ﷺ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] مع أن الله ألهمه بأن زيداً سيطلق زينب وستكون بعد ذلك زوجة له ﷺ ولكن لم يتوجه للنبي أمر إلهي بذلك. فكأن النبي استثقل ذلك وشعر بصعوبة تقبل الناس لهذا الأمر الذي فيه إبطال فعلي لكل آثار التبني حيث يتزوج النبي مطلقة متبناه سابقاً. فكأنه ﷺ

(١) راجع تفسير ابن كثير للآية.

أراد تأجيله مع أنه ﷺ لم يخش الناس في يوم من الأيام في أمور العقيدة ومخالفة الآباء وتغيير أعراف الجاهلية وتقاليدها.. فتأتي الآية لتعلن ذلك كله على الملأ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ..﴾ [الأحزاب: ٣٧] تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - لو كتم محمد شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم هذه الآية[1] والآية تقدم دليلاً قوياً على أن القرآن من عند الله. وتبليغ مثل هذه الآية يحتاج إلى شجاعة الأنبياء.

وطلق زيد زينب وهما لا يعرفان الأمر الذي أراده الله. فلما انقضت عدة زينب أرسل النبي ﷺ يخطبها. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا..﴾ [الأحزاب: ٣٧] عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب - رضي الله عنها - قال ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها عليّ» فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى آمر ربي عز وجل فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن. وجاء رسول الله صلى الله

---

(١) المرجع السابق.

عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن[1] وكانت زينب تفاخر زوجات النبي ﷺ بقولها: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات. وكانت تقول للنبي: إني لأدل عليك بثلاثٍ ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد. وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام[2].

وهكذا أكرم الله هذه المرأة التي أطاعت رسول الله في زواجها من زيد رغم عدم التكافؤ بينهما فأصبحت زوجة النبي وأم المؤمنين.

١٧ـ **النموذج السابع عشر**: نساء النبي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ـ٣١].

تأتي هذه التوجيهات بعد أن طلبت نساء النبي من النبي التوسعة في النفقة. ونحن نعلم حياة التقشف التي عشنَها.. حتى كان معظم

---

(١) رواه الإمام أحمد وكذلك الإمام مسلم في صحيحه.
(٢) رواه ابن جرير عن الشعبي.

طعامهن التمر والماء.. وكان يمر الشهر والشهران ولا يوقد في أبيات رسول الله نار. لقد أراد رسول الله ﷺ لنفسه ولأهل بيته حياة الزهد.. فجاءت الآيات تخيّر زوجاته بين الحياة مع رسول الله بما فيها من تقشف وأجر عظيم وبين متاع الحياة الدنيا، فاخترن كلهن رسول الله والدار الآخرة.. فجاءت الآيات بتكريمهن وتوجيههن فهن في مركز القدوة بالنسبة للمؤمنات ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤] ولعل الآيات الواردة في سورة التحريم نزلت قبل هذه.. حيث تتحدث سورة التحريم عن مشكلة في بيت النبي حدثت بسبب الغيرة.. وكما تذكر الروايات أن رسول الله ﷺ كان يقف عند إحدى نسائه وقتاً أكبر كانت تسقيه فيه عسلاً. فاتفقت عائشة وحفصة وبعض نسائه على التظاهر بأن هذا العسل مغشوش ويجعل رائحة النبي كريهة.. فأقسم أن لا يذوق هذا العسل.. وفي رواية أن الغيرة كانت من جاريته مارية القبطية. فقد وجدتها حفصة مرة مع رسول الله ﷺ في غرفتها.. فغضبت.. فأرضاها النبي ﷺ بأن حرّم على نفسه أن يقترب من مارية وطلب منها أن تكتم الأمر.. ولكنها

أخبرت عائشة من فرحها.. فنزلت سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢].

حين نتأمل الأحداث نشعر بأن هذه المشاكل كانت طبيعية فنساء النبي من البشر وغيرتهن على النبي طبيعية، فمن منهن لا تحب أن تستأثر برسول الله. ولكن حين احتدت هذه الغيرة إلى درجة إزعاج النبي وحرمانه من بعض ما أحل الله له.. تولّى القرآن التأديب والتوجيه.. وتستغل الحادثة لتذكرَ في آيات تتلى على المؤمنين إلى يوم الدين.. لفوائد كثيرة منها تعليم المؤمنين أن الحياة الزوجية لا تخلو من مشاكل.. وكل شيء يعالج إذا توفرت التقوى.. ومنها إطلاع الرجال على المدى الذي وصل إليه لطف الرسول ﷺ مع أزواجه وحرصه على تطييب خواطرهن.. وبيت النبوة قدوة حتى عند حدوث المشاكل.. وينبغي أن يتعلم الناس كيف يواجهون المشاكل.. وكيف يراجعون أنفسهم ويتذكرون رقابة الله وإطلاعه على الأسرار: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٣ـ٥] انظر إلى صفة سائحات هنا في معرض المدح.. لقد تهرب بعض المفسرين من المعنى المباشر للكلمة وفسروها على أنها صائمات أو متفكرات في خلق الله لأنهم يظنون أن تقوى المرأة في عدم خروجها من بيتها. وكأن الأمر القرآني بالسير في الأرض والنظر والاعتبار قاصر على الرجال !

ويأتي التوجيه للمؤمنين بأن يهتموا بشؤون أسرهم وتسديد مسارها حتى ترتقي نحو رضى الله باستمرار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وهو طرف من عناية القرآن الشديدة بالأسرة.

فإذا عدنا إلى سورة الأحزاب نجد التمييز والتكريم.. حتى أن النبي يُمنع من الزواج من غيرهن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وفي رواية أنه ﷺ سُمح له بعد ذلك ولكنه لم يتزوج من غيرهن لكي يعرفنَ مكانتهنّ في قلب النبي ﷺ.

ووُجّه المؤمنون إلى احترام نساء النبي أكثر بتحريم الزواج منهن بعد النبي وقال عنهن ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ..﴾ [الأحزاب: ٦]. ولقد كنّ حقاً أمهات للمؤمنين يرجعون إليهن في أمور دينهم وفي حل مشاكلهم.. وكانت بيوتهن مراكز إشعاع في

المجتمع المؤمن كما أراد الله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ . . ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

١٨ـ النموذج الثامن عشر: المجادِلة وهي خولة بنت ثعلبة التي نزل فيها قول الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]. تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ «تبارك الله الذي أوعى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يارسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني!! اللهم إني أشكو إليك. قالت فما برحت حتى نزل جبريل بالآية». (رواه أبو حاتم).

إنها صورة من صور الظلم الذي كانت ترزح تحته المرأة في الجاهلية حيث كان الرجل يحرم زوجته من المعاشرة الزوجية ويمسكها معلقة لاهي زوجة ولا هي مطلقة. وتأتي هذه المرأة التي تذوقت عدل الله ورحمته في ظل الإسلام.. تأتي لتشتكيَ إلى رسول الله وتصف حالتها بعبارات وجيزة بليغة: أهكذا بعد أن قدمت له كل ما أملك.. مالي وشبابي ونثرت له الأولاد من بطني.. أهكذا بعد عِشْرة عمر.. وبعد أن كبرت سني.. يأتي في لحظة غضب ليتنكر لكل ذلك ويحرمني من

يسمع رسول الله ﷺ لها ويتألم لحالها.؟. لكنه يحتار في حل هذه المشكلة ويقول لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه» فتقول المجادلة كيف وقد قدمت له كذا وكذا.. وترفع وجهها نحو السماء والحرقة تتفجر من قلبها ولسانها: (اللهم إني أشكو إليك). فتنزل الآيات من السميع البصير لإنصافها.. فيحرم الظهار ويفرض على من يتلفظ به كفارة ثقيلة: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٢-٤] ويعتبر الذين وقعوا في مثل هذا الخطأ وكأنهم قد فقدوا إيمانهم فيوجه إليهم تهديداً ترتجف منه القلوب ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤] حقاً لقد غير القرآن شخصية المرأة فما عادت تقبل اضطهاد الرجل لها.. ولم تكتف بالشكوى والتظلم بل إنها جعلت تجادل رسول الله في حقها.. والقرآن يُقرها على ذلك ويسمي السورة (المجادلة). وتقف خولة لعمر وقد أصبح أمير المؤمنين فتناديه وهو خارج من المسجد فتعظه: عهدتك في مكة وأنت تدعى عميراً ترعى الغنم لقريش فلم تذهب

الأيام حتى صرت أمير المؤمنين فاتق الله.. وهو يسمع لها بكل احترام حتى عاتبه أحد أصحابه على وقوفه لعجوز تغلظ له بالكلام. فقال: ويحك لقد سمع الله قولها من فوق سبع سماوات أفلا يسمع عمر قولها؟!

١٩ـ النموذج التاسع عشر: امرأة أبي لهب في صورة موجزة ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤] تسعى في أذية رسول الله بوضع الشوك في طريقه.. وقد تكون إشارة إلى حرصها على الإفساد بين الناس وإشعال نار الفتنة بينهم. ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: ٥] إهانة لها على تعاليها على دين الله ورسوله وتهديداً لها بسوء المصير في الآخرة.

إنها عينة للمرأة التي استولى عليها الشر فكانت مثالاً للإستكبار والأذى.. والمرأة لاتطاق حين يستحوذ عليها الشيطان ولهذا ضرب بها المثل على شناعة الكفر في امرأة نوح وامرأة لوط. لكنها حين يستولي عليها حب الله تغدو منارة من نور لايدانيها أحد في بهائها. المرأة تتحمس لدينها ـ بغض النظر عن صلاحيته ـ وتحمله وتخدمه بقوة.. وهذا الحماس العقائدي راجع لطبيعتها العاطفية فيما يبدو.

بعد استعراض هذه النماذج في القرآن نستطيع أن نستخلص:

الصفات العامة للمرأة من خلالها:

١ـ التأثر العاطفي وسرعة الإنفعال (ويدخل في ذلك الغيرة)

٢ـ القوة في الدين.

٣ـ التعطش للأمومة ومايلازمها من رقة وحنان.

٤ـ الحياء (ابنة شعيب)

٥ـ الصبر الذي يعطي قدرة على التخطيط السليم.

٦ـ الوداعة والرغبة في السلام (ملكة سبأ).

٧ـ الذكاء الذي يلجأ إلى أساليب الإقناع بدلاً من استعمال القوة.

ولعل كونها هي الجنس الأضعف جسدياً جعلها تنمي قدرتها على التأثير النفسي.

٨ـ في القرآن سور كثيرة تتحدث عن قضايا المرأة.. وحتى في العناوين نجد هذا الإهتمام.. فهذه سورة تحمل اسم امرأة وهي مريم. وسورة باسم النساء عامة وسورة باسم عائلة (آل عمران). وسورة باسم الطلاق وهي إحدى مشاكل المرأة. وسورة (التحريم) متعلقة بنساء النبي مباشرة. وسورة باسم (المجادلة) تتناول مشكلة وقعت بها إحدى الصحابيات. وسورة (الممتحنة) تتحدث عن امتحان اللواتي انضممن إلى المجتمع المسلم وهاجرن إليه.

أما السور التي طرحت فيها قضايا المرأة ـ زيادة على ماسبق فهي: البقرة ـ النور ـ الأحزاب. ونستطيع أن نقول أن قضايا المرأة والأسرة طرحت تشكل خص في السور التالية: البقرة ـ النساء ـ

النور ـ الأحزاب ـ المجادلة ـ الممتحنة ـ الطلاق ـ التحريم.

هذه المساحة الواسعة من الآيات تدل على أهمية دور المرأة وخطورة سلامة الأسرة فهي بذرة المجتمع وجذره الذي لايقوم المجتمع إلا به.. المرأة هي الأداة الأولى لحفظ النوع وترقيته.. ولابد أن تعطى لها العناية الخاصة وتحاط بالظروف المساعدة على أداء دورها.. وطالما أن المرأة هي المسؤولة عن صناعة الإنسان وتربيته.. فينبغي أن يكون التعليم والتوعية لها أولاً، وليس كما هو سائد في عالمنا من أن الأولوية في التعليم للرجل .. والمناهج موضوعة للرجل.. وقلما نجد فيها ما يزود المرأة بالعلم الكافي لأداء دورها الأساسي هذا (كالعلوم الإنسانية).

٩ـ وقد نزل القرآن على مجتمع يهمل المرأة أكثر من ذلك.. بل كان يظلمها إلى درجة الوأد ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ـ٩]. فنزلت الآيات بالتوجيهات والتشريعات التي أحدثت ثورة ثقافية في قضية المرأة في ذاك المجتمع.. ويكفي أن نتذكر قول عمر: «والله إن كنا في الجاهلية مانعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ماأنزل وقسم لهن ماقسم». وليس لنا في هذا البحث العاجل إلا أن نشير إلى بعض العناوين:

١ـ كان الناس يتشاءمون من ولادة الأنثى فجاء القرآن يندد بهذا الموقف: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]. وكان فيهم من يئد البنات.. فتوعدهم الله ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

٢- وكانت توْرث كالمتاع إذا مات عنها أبوها أوزوجها وللوارث أن يتزوجها دون مهر أويزوجها لمن يشاء ويأكل مهرها.. فجاء القرآن يحرم ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩] وكان بعضهم يمنع المرأة الغنية من الزواج حتى تموت ويرثها هو.. فحرم الله ذلك ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩].

٣- وكانت تحرم من مهرها ويأخذه وليها فنهى القرآن عن ذلك: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

٤- وكانت تحرم من الإرث فجاء القرآن ليقرر لها حقاً في الميراث ويقسم لها نصيباً، سواء كانت أماً أو زوجةً أو ابنةً أو أختاً: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] وانظر تفصيل ذلك في الآيات من ١١ إلى ١٢ منها.

٥- ولم يقتصر الأمر على النهي عن ظلمها بل أمر بمعاشرتها بالإحسان: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟

شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

٦ـ فإن أراد أن يطلق زوجته ويتزوج من غيرها فلا يجوز له أن يسترد شيئاً مما أعطاها: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠] ويحرك المشاعر والضمير حتى يكون الوازع داخليا لأنه هو صاحب الكلمة الأولى في العلاقات الزوجية: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

٧ـ وأمر الرجال بابتغاء الحلال في طلبهم للنساء، فيقول بعد أن حدد المحرمات من النساء: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٤] أي عليكم أن تنظروا إلى المؤمنات من حولكم مثلما تنظرون إلى أخواتكم وأمهاتكم إلا إذا أردتم الزواج فعندها تسلكون الطريق الشرعي ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤].

٨ـ وجعل الرجل مسؤولاً عن الإنفاق على المرأة وعن تدبير شؤونها ورعايتها وذلك لمساعدتها على التفرغ لدورها الخطير في الحياة الإنسانية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

15

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فلقد فضل الرجال بالقوة على السعي في طلب الرزق. وفضل النساء بمنزلة الأمومة التي فسرناها على أنها صناعة الإنسان (فالتفضيل هنا معناه تمييز كل جنس بصفات معينة لتتكامل الحياة.) ولهذا فُرضت القوامة على الرجل وهي مثل كل وظيفة في هذه الحياة عبارة عن حقوق وواجبات. فهي مسؤولية كاملة عن المرأة مادياً ومعنوياً فهي واجب من هذا الجانب. وأما من حيث هي حق للرجل على المرأة: الطاعة بالمعروف وحسن المعاملة والوفاء. وقد كان رسول الله ﷺ أحسن قدوة للمؤمنين في ذلك (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) ولا يتسع المجال هنا لشرح كيفية معاملته ﷺ لأزواجه.

٩ـ ضمن القرآن صيانة عرض المرأة فقد حرم الله البِغاء والمتاجرة بالرقيق الأبيض ـ كما يسمونه الآن ـ ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣] ومن المؤسف أن تُستعمل المرأة الآن لترويج البضائع.. هذا الإستغلال الإعلامي يشبه السابق وإن كان أقل وزراً. وجاء حد القذف لمن رمى المرأة بالسوء ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤] ومع أن حد القذف يطبق سواءً كان المقذوف رجلاً أو امرأة.. ولكن الآيات تحدثت عن المرأة المقذوفة فقط وهذا له دلالته.. إن هذايوحي بأن المرأة كانت تتعرض لهذا

الموضوع أكثر.. فالناس لاتقيم وزناً لفسق الرجل ووقوعه في الفاحشة لايعتبر عيباً قادحاً فيه.. هكذا تنظر المجتمعات الجاهلية للأمر.. وبالتالي فإن الظلم الواقع على المرأة المقذوفة كان أكبر. وفي حالة قذف الزوج لزوجته شرع الله الملاعنة التي تعتبر أخف ضرراً على المرأة من أي اسلوب آخر قد يلجأ إليه الزوج.. اللهم إلا الستر الذي حث عليه النبي ﷺ (راجع الآيات من ٦ إلى ١٠ من سورة النور)

١٠- نهى الأولياء عن تزويج بناتهم إلا من المؤمنين ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ . .﴾ [البقرة: ٢٢١] كما بينت الأحاديث أنه من حق الفتاة أن تردّ زواج أبيها لها بدون موافقتها. ونهى الأولياء أيضاً عن منع المرأة من العودة إلى من طلقها إن كانت راغبة فيه وراغب فيها: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ . .﴾ [البقرة: ٢٣٢].

١١- وحتى في العلاقة الزوجية تأمل كيف يحيط الأمر بالتلطف ويربطه بالتقوى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

١٢- كان الرجل يعدد الزوجات دون تحديد ودون أي شروط.. فجاء القرآن بتحديد العدد فلا يتجاوز الأربع واشترط العدل والقدرة

على الإنفاق ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣].

١٣ـ وحين يغضب الزوج ويتخذ بعض الإجراءات التعسفية مع زوجته فإن القرآن يتدخل ويضع له حدوداً.. فإن أقسم أن لايقربها (وهو الإيلاء) فإن لها أن تطالب بالطلاق بعد أربعة أشهر إن تمسك بقسمه ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ.. ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أما أن يحرمها على نفسه (وهو الظهار) فقد وقع في أمر محرم وعليه الكفارة.. وهو الأمر الذي يندد به القرآن في سورة المجادلة.. وللقارىء أن يرجع إلى السورة ليتأمل ماتنضح به من غضب لتلك المرأة المظلومة ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

١٤ـ أوصى الرجل أن لايتسرع في الطلاق.. وأن يحاول علاج النشوز في زوجته.. فإن استفحل الأمر إلى حدوث الشقاق فليحاول الإصلاح بالتحكيم ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ۚ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء: ٣٥] وهو إجراء مليء بالحكمة والعدل مع المرأة.

١٥ـ فإن وصل الأمر إلى الطلاق فلا يجوز أن يكون مصدرَ ضرر المرأة، ولا يحق للرجل أن يتلاعب به ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقـــرة: ٢٢٩]. ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٣١] وانظر إلى هذه الجملة ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

١٦ـ فإن كانت المرأة كارهة لزوجها دون أن يكون فيه أي تقصير في حقوقها فلها أن تطلب الإنفصال عنه على أن تعيد إليه ماأعطاها من مهر. وتسمى هذه الحالة الخلع.. وهو منتهى العدل مع الرجل والمرأة ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ.. ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وهذا ينقض دعوى من يقول بأن الطلاق حق للرجل دون المرأة.

١٧ـ فإذا طلقها الرجل فلا يجوز أن يخرجها من البيت حتى تنتهي عدتها: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴾ [الطلاق: ١] وانظر كيف عبر القرآن عن بيت الزوجية ﴿بيوتهن﴾ وهي لفتة تستحق من العلماء وقفة لتحديد ماللمرأة من حقوق في هذا البيت الذي ساهمت في بنائه إلى درجة أن القرآن ينسبه إليها فيقول «بيوتهن» ولا يقول: بيوتكم ؟! فكيف يتجرأ

المسلم على إخراج مطلقته من بيتها.. بل وطردها أحياناً؟! وكيف لم ينتبه علماء الأمة إلى هذا الظلم؟! وكأن الآية لم يقف عندها أحد..؟!

وتمضي سورة الطلاق ببيان تفصيلات الأمر. فالأمر ليس متروكاً لأهواء الرجل ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

١٨- ليست المطلقة مجبرة على إرضاع وليدها.. فإن أرضعته فلها النفقة ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ.. ﴾ [الطلاق: ٦-٧].

وانظر إلى تلك الحملة التي تُشن بعد الحديث عن الطلاق والتحذير من بخس المرأة حقوقها ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

١٩- نهى عن الإضرار بالوالدة المطلقة.. ولا يجوز أن يستغل الرجل أمومتها كنقطة ضعف تجعلها تذعن لما يريد.. ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] كما لايجوز استغلال أبوة الرجل ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ولا يجوز لأحد الوالدين في هذه الحالة

أن ينفرد بقرار الرضاعة أو الفطام بل لابد من التشاور بين الأبوين للوصول إلى ما يحقق مصلحة الطفل ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

٢٠ـ فرض الله متعة للمطلقة وهي غير النفقة. وهي مبلغ من المال أوهدية مادية تقدم للمطلقة تطييباً لخاطرها. ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

أكتفي بهذه النقاط العشرين التي ذكرتها كعناوين ومؤشراتٍ تدل على عمق التغيير الذي أحدثه القرآن في المجتمع بالنسبة لقضايا المرأة.

وقد توسعت في عرض هذه الأمور في تفسيري للسور: البقرة والنساء والأحزاب والنور وللقارىء أن يعود إليها.

وقبل أن أترك موضوع الطلاق أقف أمام اعتراض ورد على لسان إحدى السيدات قالت: في التشريعات في الدول الغربية الآن تقاسم المطلقة ثروةَ مطلّقها التي جمعها أثناء الزواج لأن لها حقاً في هذا المال الذي جمعه عندما كانت هي تحبس نفسها على خدمة زوجها وتربية أولاده. ولو فكرنا بما يمكن أن يتقاضاه أي إنسان بديلاً عنها لوجدناه كثيراً لأنه يشمل اجر: مربية أطفال وطباخ وخادم على الأقل.. ناهيك عن الدور المعنوي والعاطفي الذي تؤديه في الأسرة.

كذلك فإن بعض الدول المتقدمة تعطي الأم العاملة أمومة لعدة سنوات حين تنجب مع بقاء الراتب الذي كانت تتقاضاه على عملها.. بينما تعاني الأم العاملة في مجتمعنا أكبر المعاناة.

أقول: حقاً لقد آن لنا أن ننظر بروح القرآن ومقاصده إلى مشاكل عصرنا.. ورحم الله العالم الجليل ابن قيم الجوزية حين قال: (حيث كان العدل فثم شرع الله). إنني أقف أمام المتعة التي فرضها الله على الرجل حين يطلق زوجته ولم يحدد لها مقداراً وإنما ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] فإذا كان القرآن يفرض هذا في مجتمع يقدم الضمانات المادية والمعنوية كاملة للمرأة في جميع أحوالها..فكيف يكون الأمر في حالنا الذي ترزح فيه المرأة تحت ضغط القهر والحرمان..؟

إن القضاة والعلماء مسؤولون عن تقديم الإجتهادات وسن القوانين التي تحقق العدل مع المرأة في النفقة والمتعة والسكن.. كيف أهملنا النظر والتدبر في قول الله تعالى عن المطلقات: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] ألا يعني هذا أن لها حقاً في هذا البيت الذي ساهمت في قيامه..؟! خاصة إذا كانت قد اشتركت في الإنفاق عليه.. ونحن نعلم أن أكثر العاملات والموظفات ينفقن رواتبهن.. ويجمعن بين العمل والكد داخل البيت وخارجه.. فهل يعقل أن تجرمن عند الطلاق من كل شيء؟!

ولكن أعود فأقول: هل مشكلتنا الآن هي فقدان القانون العادل؟

ألاترى كيف يتملص إنساننا من كثير من القوانين العادلة ويتحايل حتى يقفز من فوقها..؟! إن المشكلة الحقيقية هي انحطاط الإنسان في فكره وأخلاقه وسلوكه.

١٠ـ المرأة العاملة في القرآن:

من الطبيعي أن تعمل المرأة كما يعمل الرجل فلقد وُجّه الجميع إلى العمل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: ١٠٥]. ووعد الجميع بحسن الجزاء على العمل ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ـ١٢٤].

ولقد عرض القرآن نموذجين للمرأة العاملة بمعرض الإقرار أو المدح. نموذج من الأعمال التي تعتبر في المرحلة الدنيا.. وهو رعي الأغنام.. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] فهو نموذج اضطرت فيه المرأة إلى العمل حتى في رعي الأغنام فأدته ضمن حدود حيائها وحشمتها والنموذج الثاني للعمل في أعلى السلم: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً

تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣] فهذه امرأة تعمل ملكة وتنجح في عملها حتى تكون نموذجاً يحتذى في السياسة الحكيمة والحرص على الشورى والسلم.

ومع ذلك فإن القرآن يعرض الأمومة على أنها أعظم عمل للمرأة وبه تستحق أعلى منزلة وأعظم تكريم وتحاط بكل الرعاية والتشريعات التي تعينها على أداء هذا العمل على أحسن وجه. وهذا لايمنع من أن تقوم المرأة بأي عمل آخر يحقق الخير لها ولأمتها على أن لاتضيع عملها الأول ولا تهمله وإلا كان الضياع للأمة. فقد تستطيع المرأة أن تحل محل الرجل الطبيب أو المهندس أو رئيس الوزراء أو العالم المكتشف كما ثبت في الواقع ولكن الرجل لايستطيع أن يحل محل المرأة في صناعة الإنسان[1].

---

(١) نشرت صحيفة (حديث الجمعة) في عددها الصادر في ٣٠ديسمبر ١٩٩٤(٢٧رجب ١٤١٥هـ) في الصفحة السادسة تحت عنوان (الأم المثقفة) للطبيب النفسي محمد كمال الشريف كلاماًطيباً أقتطف منه مايلي:

لاتوجد دولة واحدة في العالم جعلت تدريس فن الأمومة وتربية الأطفال بالقدر الذي يخرج التلميذة أماً مربية مثلى... نعم تقام في بعض المدن الأمريكية دورات مسائية لبعض الأمهات لتدريسهن ذلك ولكن هذا لايكفي على الإطلاق. في جميع دول العالم تتماثل المناهج المدرسية المقدمة للذكور والإناث وذلك للحرص على التأكيد على عدم وجود تمييز بينهما.. وهذا دافع طيب ولأن الحرص على الإستفادة من=

١١ـ الوقوف عند بعض الإشكالات:

١ـ هل شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

في شرحي لسورة البقرة قلت: لماذا رجل وامرأتان؟ يأتي الجواب

= نصف المجتمع المؤنث خارج المنزل هدف أساسي للمناهج المدرسية.. وهذا ناتج عن افتراض أن الدور التربوي للأم أقل أهمية وأقل قيمة من دورها في المكتب والمعمل.. حيث تنتج السلع وتقدم الخدمات وتتقاضى راتباً.. فتزداد الأيدي العاملة.. ويزداد دخل الأسرة.. فبالمال الكثير تقتني الأسرة أشياء أكثر وتأكل أكثر مما هو لازم وغير لازم.. أما الأم المثقفة التي تركز جهدها في دورها التربوي داخل المنزل فتشكل في نظرهم خسارة للمجتمع.. الأم المربية المثلى تقوم في بيتها بدور المدرسة والممرضة والمربية والخادمة.. في أحسن مستوى ولتوفر لأطفالها رعاية متخصصة.. هذه الأم تقدم لأطفالها خدمات لايمكن شراؤها بالمال القليل.. ووجود هذه المربية المؤهلة.. نجد ثمرته وربحه في صياغة شخصية الطفل وفي نموه وصحته النفسية والبدنية وفي غرس القيم ومكارم الأخلاق لديه، ونموه شخصاً ناضجاً مسؤولاً ذا طموح وهدف في الحياة. إن ماتقدمه الأم المثقفة المؤمنة لأسرتها يمثل ـ دخلاً إضافياً خفياً لأن خدماتها تفوق خدمات الخادمة الجاهلة.. ولا يمكن تأمين خدمات مماثلة من خارج الأسرة إلا بمبالغ كبيرة لاتقدر عليها أغلب ضحالأسر العادية.

١٥

في الآية ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهناك احتمال نسيان المرأة لموضوع الشهادة بتفاصيله [ومن طبع البشر أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها] كما يقول في المنار. فقد ينشأ الضلال أو النسيان من قلة خبرة المرأة في المعاملات المالية والعقود. وبالرغم من أن كثيرات الآن يشتغلن في أعمال مالية واقتصادية لكن أكثرية النساء يتوجهن باهتمامهن إلى وظيفتهن الطبيعية التي هي الأسرة وتربية الأطفال والشؤون الإجتماعية. ولهذا فإن الأحكام تناط بالأكثرية. أما في الأمور التي تطلع عليها وحدها دون الرجال (كالولادة وإحصاء العدة بحسب القروء) فتقبل شهادتها وحدها. والمسألة ليست مسألة إكرام وإهانة، وإنما هو التثبت للأحكام والإحتياط للعدل في القضاء.. وإن بعض الفوارق في التكاليف بين الرجل والمرأة والتي أشارت إليها بعض الآيات أو الأحاديث ترجع إلى اختلاف في المواهب تتناسب مع اختلاف في الإختصاصات. علماً بأن الموهبة ينميها السعي والكسب والممارسة. ولو نقص ذلك عند الرجل لأنقص من كفاءته وخبرته.. وإذا حصلته امرأة تفوقت به على الرجال.

وأضيف هنا: إن من الطبيعي أن تكون شروط الشهادة:

١- الحضور للحادثة.

٢- الصدق والأمانة.

٣ـ العلم والوعي.

فإذا توفرت هذه الشروط في المرأة بقدرٍ متساوٍ مع الرجل فإن شهادتها مثل شهادته. وذلك أن الفقهاء قبلوا شهادتها وحدها في الأمور التي كانت من اختصاص المرأة في الماضي (وأصبح الرجل الآن يشاركها بالتوليد وما شابه).

فكأن الآية كانت تتحدث عن ظرف اجتماعي لم تكن المرأة فيه تحضر الخصومات المالية ولا علم لها بأساليب العقود والمعاملات القضائية.. فالحكم مرتبط بظروفه. والشهادة تقبل عند توفر شروطها في الشاهد سواء كان رجلاً أو امرأة.

٢ـ الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١١] هذا الحكم هو جزء من خطة الإسلام في توزيع الأعباء والتكليف على الذكر والأنثى في التكوين الأسري.. فإذا كان الرجل هو المكلف بالأنفاق على المرأة دائماً ـ ولوكانت ذات مال ـ وإذا كان الرجل هو الذي يدفع المهر والنفقة والمتعة.. بينما المرأة ليست مكلفة بالإنفاق على أحد ولا على نفسها.. فما وجه الغرابة أن يكون نصيب الرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث..؟ وهل من العدل أن يقتسما المغنم بالتساوي ويحمل هو عبء المغارم وحده..؟!

ولكن الغريب في الأمر أن مجتمعنا الحالي نسي ـ أو تناسى ـ مسؤولية الرجل عن المرأة في الإنفاق.. وتركها تكدح وتشقى على

حساب صحتها حتى ضيعت رعايتها لأولادها.. فإذا وصل الأمر إلى تقسيم الميراث.. تذكر الرجال قرآنهم.. وطالبوا بضعف نصيب المرأة وكأن القرآن قسم لهم هذا لمجرد رجولتهم العضوية فقط!!

كان صاحب الظلال رحمه الله يهتف بغضب أحياناً: (خذوا القرآن جملة أو دعوه) هذه العبارة قد لاتكون صحيحة في كل مجال.. لكنها هنا تأتي في مكانها.. وهو ماكان يقول عنه القرآن ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

إن هذا الخلل في التطبيق هو الذي أثمر الظلم الإجتماعي.. وهو الذي أشعر المرأة بالإجحاف حتى ظنت أن القرآن هو الذي ظلمها.. ورحم الله ابن القيم حين قال: (حيث كان العدل فثم شرع الله) لأن الله يأمر بالعدل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء: ٥٨]. فيامن تريد تحكيم القرآن.. عليك أن تدرك أن الوقوف عند النصوص وحدها لايكفي.. ولا بد أن تدرس الواقع وما يجري فيه والظروف التي يعيشها هؤلاء الذين تحكم فيهم.. ولا تنس أن عمر- رضي الله عنه - كان يعرف كيف يطبق القرآن حين أوقف قطع يد السارق في عام الرمادة لما حدث فيه من مجاعة.

٣- القوامة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ

﴿عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] أي بما وهب لكل منهما من صفات تساعده على القيام بوظيفته.. ولم تقل الآية (بما فضل الله الرجال على النساء) وكما قلت سابقاً إن القوامة هي وظيفة داخل الأسرة لإدارة شؤونها وحمايتها.. وكل مؤسسة تحتاج إلى رئيس متفرغ ومتخصص يكلف بمجموعة من الواجبات ويعطى مجموعة من الحقوق لكي يؤدي دوره على الوجه السليم.. ولكي تنتج المؤسسة ثمارها الطيبة. والمرأة مشغولة بالإنسان وطفولته الطويلة المدى.. فهي لاتملك التفرغ لإدارة مؤسسة الأسرة.. ومن الأفضل أن تُكفى الشؤون الإدارية لتبدع في هندسة شخصية الإنسان. والقوامة هي المقصودة بالدرجة في آية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. صحيح أن هذه القوامة تستلزم الطاعة من المرأة لكنها مسؤولية كبرى توضع على كاهل الرجل بحيث يكون المسؤول الأول عن كل ما يصيب تلك المؤسسة الهامة في المجتمع. وإن من فهم الإسلام وعاش حياة إسلامية يدرك الأمر بواقعية وتجرد ويرى فيه إكراماً للمرأة وعوناً لها وإن هذا التوزيع للوظائف لايبنى عليه أي تفضيل في الدنيا والآخرة.. والمشكلة دائماً في سوء الفهم والتطبيق.

٤- علاج نشوز المرأة ونشوز الرجل: جاءت الآية في علاج نشوز المرأة ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ

وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] والنشوز هو الإستعلاء على الرجل إلى درجة أن تحرمه حقوقه في بيته. وقد عرضت له ثلاثة أساليب متدرجة في العلاج.

أما نشوز الرجل: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٨] هنا يُنصح الطرفان بالسعي إلى الصلح لأن الصلح خير للفرد والأسرة والمجتمع. والمسلم عليه أن يجاهدَ الشح في نفسه ويروضها على التقوى والإحسان لأن الحياة الإجتماعية لاتنمو إلا بانتشار هذه المعاني.

والسؤال هنا: لماذا اختلف الأسلوب في علاج النشوز بين المرأة والرجل؟ إن هذا يوحي بأن هناك فوارق بين الجنسين. وهذا أمر واقعي.. طبعاً إن جزءاً من هذه الفوارق طبيعي وفطري.. لكن أكثرها ناتج من تأثير البيئة والثقافة الإجتماعية. نحن حتى الآن نعيش في مجتمع تقبل المرأة فيه أن يعظها زوجها ويؤدبها إن اقتضى الأمرفهي تهابه وتوقره.. لكن الرجل لايقبل أن تعظه زوجته وتؤدبه.. بل إن المرأة نفسها في مجتمعنا تفقد احترامها للرجل الهين اللين في كثير من الأحيان وقد سمعت عدداً من النساء المتحررات

يصرحن بذلك. وأظن أن هذا الأمر ناتج عن ثقافة إنسانية بعيدة المدى دأبت على تجسيم الفروق بين الجنسين وإحاطة الذكر بهالة من الكبرياء الفارغة.. وقد كنت في الماضي أظن أن عالمنا المتخلف وحده هو المصاب بهذا الداء.. ولكن تبين لي أنه مرض عالمي وإن كان على نسب متفاوتة. ولك أن تلاحق أخبار الحوادث هناك من شيوع ضرب المرأة إلى درجة التشويه أحياناً مما اقتضى فتح مؤسسات لعلاج مثل هذه الحالات.. ومتابعة إحصائيات حوادث الإغتصاب.. وبعض الباحثين في العالم الغربي الآن يحاولون دراسة موضوع الفوارق هذا.. المهم في الأمر أنها أوضاع واقعية بغض النظر عن رأينا فيها.. وهي نابعة من تقديسنا لمنطق الحق للقوة.. فالحياة والبقاء للأقوى.. ومشاكلنا تحل بالقوة لابالتفاهم. ولابد أن نضع في اعتبارنا هذا الواقع حين نتوجه إلى حل مشاكل الأسرة. طبعاً إن الهدف من الأساليب المذكورة في الآيات هو الإصلاح. والهدف يبقى ثابتاً ولكن الأساليب والوسائل تتغير وتتطور بارتقاء الإنسان وتطوره. ورسول الله ﷺ في تطبيقه العملي كان سابقاً لعصره بكثير من الإرتقاء.. فهو تطبيقياً قد ألغى منطق القوة وأعطى الإولوية للتسامح والخلق الحسن والتعامل المبني على الحب والعطاء.. حتى العداوة عالجها ﷺ بالحب والعفو.. ونحن الآن بعد أربعة عشر قرناً بدأنا نتفاءل ونحس أن الإنسان قد أصبح يشمئز من استعمال القوة في حل المشاكل وهو يرتقي باتجاه العلم والأخلاق.. ويطور أساليبه في

التربية والعلاج النفسي.. فما المانع من أن ننظر إلى الأساليب التي طرحها القرآن في علاج نشوز المرأة على أنها مرتبطة بظروف عصرها فإن لم تثمر الآن النتيجة المرجوة - وهي إصلاح الأسرة فعلينا أن نعدل أسلوب نظرنا.. وكما طورنا وسائل النقل وأساليب العلاج الطبي.. يجب أن نطور أساليب العلاج النفسي والتربوي.

٥- آية ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦]. وعند العودة إلى نص الآية كاملاً نرى أنها من كلام امرأة عمران ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ.. ﴾ [آل عمران: ٣٦] فهي تطلق حكماً يتناسب مع الظرف الإجتماعي الذي تعيشه.. فإن قلنا أن الجملة الإعتراضية تستوعب العبارة بحيث تصبح الجملة المعترضة ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦] كلها من كلام الله تعالى.. فهو يقرر الحقيقة التي كانت والتي مازالت تسيطر على البشر في تعميق الفوارق بين الجنسين كما سبق أن ذكرت.

٦- الآية تتحدث عن الأنثى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨] والآيات التي قبلها تستنكر على المشركين أي يدّعوا أن الملائكة بنات الله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٦-١٨] فالطريف في الأمر أنهم نسبوا لله مايكرهونه

لأنفسهم. والآية هنا ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ . . . ﴾ [الزخرف: ١٨] تشير إلى أثر البيئة والثقافة في ترسيخ الميول والخصائص التي كثيراً مانظنها فطرية.. مثلاً حب الزينة والتجمل أمر موجود في المرأة والرجل ولكن المجتمع يدعم هذه الصفة عند المرأة ويعززها[1]. بينما يقلصها عند الرجل.. انظر إلى نوع الهدايا التي تقدم للمولودة الأنثى؟ إنها كثيراً ماتكون أنواعاً من الحلي.. وحتى الجوائز والهدايا والألعاب التي تقدم لها عندما تنمو.. إنها تسير في اتجاه واحد محوره أدوات الزينة والعرائس الجميلة المزينة.. وهو أمر مختلف جداً فيما يقدم من هدايا للذكر.. وقد لمست أن الأطفال الذكور ينظرون إلى البنات أحياناً نظرة حسد يتمنون أن يحصلوا على مثل هذه الحلي والعرائس.. ولكن الضغط الإجتماعي يجعلهم يكبتون هذا في أنفسهم ويتباهون على البنات بالسيارات والطائرات والمسدسات.. وهي ألعاب تتمناها البنت ولكن تكبت شعورها غالباً.

هذا مثال واحد على أثر البيئة وتنشئتها للبنات في الحلية.. والآية دقيقة جداً في عرض ذلك. ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨] لأنها أيضاً تُصَدُّ عن دراسة المواضيع العلمية الرصينة ويُستخف بها إن شاركت في نقاش أو حاولت أن تهتم بما يجري في العالم من أحداث، أو أبدت رأياً في ميدان السياسة.. طبعاً أنا أتحدث عن الصورة العامة

---

(١) إلى درجة تصبح هدفاً للمرأة تحصر همها وجهدها فيه.

التي تسود البيئة. والعينات التي خرجت عن هذا الإتجاه قليلة ولكنها موجودة.. ولهذا يُلجأ إلى الرجال في الخصومات والتحكيم.. ويُلجأ إلى الرجال في الدفاع والمرافعات. حقاً إن البيئة تصنع معظم شخصية الإنسان.

٧ـ **«إن كيدكن عظيم»**: هذه العبارة من كلام عزيز مصر حيث تبدأ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] وعلى هذا لايصح أن يقال إنه حكم عام يطلقه الله على النساء.. ثم أن كلمة الكيد تأتي بمعنى التدبير.. وكثير من الآيات تتحدث عن كيد الله ـ سبحانه ـ ومكره.. ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ.. ﴾ [يوسف: ٧٦] ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] المهم أن يكون الكيد والمكر لتحقيق الخير والأبقى.

٨ـ **تعدد الزوجات**: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣].

والموضوع واسع وكُتب فيه كثير.. وسأكتفي بإشارات سريعة حوله:

١ـ إن موضوع التعدد لايتم إلا بموافقة المرأة.. لماذا تقبل المرأة أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة..؟! وطالما وجد في المجتمع من تقبل ذلك فمعنى ذلك أن التعدد ضرورة اجتماعية.

٢ـ تستطيع المرأة أن تشترط عند العقد أن لايتزوج عليها زوجها.

٣ـ كان التعدد في الجاهلية بدون قيد أو شرط. فجاء الإسلام فحدد عدداً لايجوز تجاوزه ووضع شرطين للتعدد:

١ـ العدل.

٢ـ القدرة على الإنفاق. وتتمة الآية ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣] تعولوا: ترزحوا تحت أعباء النفقات.

٤ـ الآية جاءت في معرض كف الضرر عن المراة اليتيمة التي كان وليها يطمع في الزواج منها لمالها أو لجمالها.. فتتعرض للغبن في مهرها أو ترغم على الموافقة.. فالقرآن يصرف أنظار الأولياء عن اليتيمات ويقول لم تتركون أرض الله الواسعة وتدخلون في المتاهات ومواضع الحظر..؟ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ.. ﴾ [النساء: ٣].

٥ـ من الملاحظ أن للتطور والإرتقاء الإنساني أثر في هذا الموضوع.. ففي زمن محمد ﷺ ونزول القرآن لم يكن الموضوع مستهجناً بل كان طبيعياً جداً.. والشاذ هو الذي لايعدد، ومع ذلك فقد كرهه النبي لابنته فاطمة. عن المسور بن مخرمة أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ خطب ابنة أبي جهل وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ فلما سمعت بذلك فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أتت النبي ﷺ

فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لاتغضب لبناتك وهذا علي ناكحاً ابنة أبي جهل. قال المسور: فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد ثم قال: «أما بعد فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني. وإن فاطمة بنت محمد مضغة مني وإنما أكره أن يفتنوها. وإنها والله لاتجتمع ابنة رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً» قال فترك علي - رضي الله عنه - الخطبة (رواه البخاري ومسلم) وقد أورد البخاري هذا الحديث في كتاب النكاح، باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف. فقال الحافظ ابن حجر ويؤخذ من فقه البخاري في ترجمة الباب تقرير حق المرأة المسلمة وأهلها في الإعتراض على التعدد وطلب الطلاق إذا كانت المرأة شديدة الغيرة وتتضرر ضرراً جسيماً وأن ذلك ليس خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وأن فاطمة لو رضيت بذلك لم يمنع علياً من التزويج بها أو بغيرها. وفيه حجة لمن يقول بسد الذريعة (منع من الحلال لما يترتب عليه من الضرر)

وفي الحديث دلالة على أن النبي لم يكن يرضى بذلك لكل بناته (إني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني) وهو زوج زينب - رضي الله عنها -. وما ورد أن أحداً من أصهاره ﷺ قد جمعوا زوجة أخرى مع بناته. فالأمر ليس خاصاً بأن المخطوبة كانت ابنة أبي جهل.. أما التساؤل: كيف يعدد رسول الله وهو يكره لبناته هذا الأمر؟

فذاك أمر له مقاصد كثيرة.. وقبل كل شيء يجب أن نذكر أن رسول الله ماتزوج امرأة إلا بأمر من الله أو بإذن منه سبحانه. ولسنا الآن في معرض ذكر زيجات النبي وأسبابها، ويكفي أن نقول أن معظمهن كن ثيبات محتاجات للتكريم أو الكفالة.. وقد اكتفى في سنوات شبابه بزوجة واحدة عاش معها وحدها أكثر من عشرين عاماً حتى توفيت رحمها الله.

أما الآن فقليل من الرجال من يعدد ولو عمل إحصاء لظهر هذا واضحاً للعيان.. وأظن أن موضوع التعدد شبيه بموضوع ملك اليمين.. لكن الرق انتهى من العالم تقريباً وأغلقت مصادره.. أما التعدد فقد جعله الارتقاء الإنساني قاصراً على ضرورات وحالات محدودة في المجتمع.. وميزة الإسلام أنه يستوعب صوراً متعددة من التطور الإجتماعي ولا يتجمد عند مرحلة معينة. ولهذا لايمكن أن تكون صورة المجتمع المسلم المعاصر مطابقة تماماً لصورة مجتمع الصحابة. إن هذا يعنى الركود والموت البطيء.

٦ـ للحاكم المسلم صلاحية في وضع القيود على هذا الأمر.. أو منعه لفترة إذا اقتضت مصلحة المجتمع المسلم ذلك. وأهل الحل والعقد الذين يشرفون على سلامة المجتمع هم الذين يقررون ذلك. ودليلنا في ذلك أن عمر ـ رضي الله عنه ـ منع المسلمين من الزواج من الكتابية في فترة من حكمه. وذلك لما أصاب المسلمات من ركود..

وعمر ـ رضي الله عنه ـ يدرك أن النصوص جاءت لمصلحة الفرد والمجتمع.. فهو يدرك مقاصد الشريعة ولذلك لم يقف مكتوف اليدين أمام الآية ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ.. ﴾ [المائدة: ٥].

٩ـ من الأمور التي يحتدم حولها النقاش الآن: موضوع لباس المرأة المسلمة وحدوده أو مايطلق عليه الآن خطأً: موضوع الحجاب.. إذ أن من الأخطاء الشائعة: القول بأن القرآن قد فرض الحجاب على المرأة المسلمة.. لأن فرض الحجاب لم يأت في القرآن إلا في الحديث عن زوجات النبي ﷺ ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي ستار أو غطاء للوجه. أما التوجيهات الواردة للمؤمنات بشأن لباسهن فهي محصورة في آيتين: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا.. ﴾ [النور: ٣١] والثانية هي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقد قيد لباس المرأة في هاتين الآيتين بشرط واحد: ألا يبدي الزينة. صحيح أنه نص في الآيتين على الخمار والجلباب.. ولكن القصد منهما هو ستر الزينة لاالتقيد بنوع معين من اللباس. والمقصد

الشرعي من ذلك واضح: وهو حماية المرأة والرجل من الفتنة والفساد الخلقي. بدليل أن القرآن قد خفف هذا الأمر عن الكبيرات في السن اللواتي فقدن معظم فتنتهن ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ . . ﴾ [النور: ٦٠].

ومن المؤسف أن تُخدع المرأة المسلمة بالبريق المزيف الذي تحاط به المرأة الغربية إلى درجة الإدعاء بأن هذه الأوامر الإلهية قيود تكبل حرية المرأة. . فهاهي المرأة الغربية قد حققت ذاتها ونالت كرامتها حين تحررت من هذه القيود. . وانطلقت تلبس ماتشاء وتفعل ماتشاء. . وهنا أتمنى أن نتحرر من هذا الإنبهار. . ونعيد النظر في الأوضاع العالمية للمرأة. . فلننظر مثلاً إلى ماكتبه الدكتور مراد هوفمان ـ وهو ألماني دخل في الإسلام ـ في كتابه (الإسلام كبديل) عن بعض مشاكل المرأة في الغرب. . فهو يتحدث عن ظاهرة عدم مساواة المرأة بالرجل في مجال العمل على الصعيد العالمي كله (المحت إلى ذلك السيدة سلفيا آن هولت في كتابها «حياة مهانة: أسطورة تحرير المرأة في أمريكا» الصادر عام ١٩٨٦. وقد أكدت المؤلفة في كتابها أن الأجر (الراتب الشهري) للمرأة في أمريكا لايزيد عن نسبة ٦٤ من أجر الرجل عن العمل المؤدى نفسه. وحتى في السويد نفسها تبلغ هذه النسبة ٨١ فقط. . . على أن الإحتفال بميلاد أنثى على وجه العموم في

بلاد الصين أو في بلاد المسيحيين اللاتين ليس بأحسن خطاً منه في بلاد المسلمين)[1] ويقول في موضع آخر معرّضاً بما حدث في فرنسا من ضغط ضد المسلمات:

(وأهم من ذلك أن تترك للمرأة الأوربية المسلمة التي قررت مختارة حجب شعرها حرية الكلمة لتعبر عن نفسها وتفسر اختيارها للحجاب.. ولا عجب أن المسلمات الأوربيات هؤلاء متفقات جميعاً على أن المرأة في المجتمع الغربي قد صارت رمزاً معروضاً لتجارة الجنس، وذلك بازدياد مصممي الثياب المستمر في تعرية جسد المرأة وإبراز مفاتنها الجسدية حتى صارت المرأة ضحية الضغط المتواصل عليها لتظهر أناقتها بحيث تصبح أكثر إثارة وفتنة للرجال. إن المرأة المسلمة الأوربية التي تغطي شعرها متمثلة بالشرع طوعاً، إنما تريد في المجتمع الغربي راحة البال محاولة ابتغاء مرضاة الله مبتغية في الوقت ذاته الخروج من الدوامة الشيطانية التي تعصف بالمجتمع الغربي المتخذ جسد المرأة تجارة رائجة سوقها قاصدة أن تعيد للمرأة من جديد كرامتها بوصفها امرأة، لا موضوعاً للجنس وتجارته.. إنها إنما تبرز زينتها لزوجها غير عارضة لها نهباً للأنظار هنا وهناك، كأنما تريد أن تعلن عن نفسها ليتقدم إليها الراغبون في الزواج. إن تلك المسلمة ذات الخمار أو الحجاب إنما تريد أن تقول لمن حولها في البيئة التي

---

(١) صفحة من كتاب (الإسلام كبديل) مراد هوفمان.

تعيش فيها: أيها الناس: إنني امرأة لي كرامتي، عليكم أن تأخذوني مأخذ الجد، وليس لكم أن تنظروا إليّ وإلى ساقيّ نظرةَ رخيصة خبيثة.. ! إن لبس الخمار أو وضع الحجاب أو النقاب بذاك المفهوم، عمل ثوري ورمز للاحتجاج أو الاعتراض على أسلوب الحياة وشروطها في أوربة المعاصرة. وليس بأية حال رجوعاً مرتداً إلى التقاليد البدوية العتيقة التي صاحبت القبائل...)[1] أعود فأقول: صحيح أن المرأة المسلمة في عالمنا المعاصر المتخلف مقهورة ومظلومة: ولكن هل المرأة الغربية قد تحررت من القهر واستعادت كرامتها حتى نحذو حذوها..؟ ! إن القوانين الوضعية في العالم كله من وضع الرجل.. أما القرآن فهو القانون الذي وضعه رب المرأة والرجل.. الذي جعل الكرامة والتفضيل للأتقى لا للأقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهنا يرد اعتراض: إذ أن بعض ـ الباحثين ـ ومنهم الدكتور مراد هوفمان ـ يرى أن ستر الزينة أمر مرتبط باختلاف البيئات والمثيرات.. وليس شرطاً أن يعني ستر الزينة تغطية شعر المرأة، ففي بيئة معينة قد لايعتبر شعر المرأة مثيراً وفاتناً..

وقد يقول قائل أيضاً: ألم نقرر أن المسلم غير مقيد بحرفية

(١) صفحة ٢٢١ من كتاب (الإسلام كبديل) مراد هوفمان.

النصوص؟ وإنما المهم هو تحقيق مقاصد الشريعة التي تراعي مصالح العباد.. وعلى هذا نحن لسنا مقيدين بالنصوص الواردة في لباس المرأة.

وهنا يحق لي أن أعبر عن رأيي - مع احترامي لآراء الآخرين - فأقول: إن أوامر الله على قسمين: قسم يتعلق بالعبادات فهو ثابت لامجال للاحتهاد فيه. وقسم يتعلق بالمعاملات وتنظيم المجتمع.. وهو الجانب الذي يجتهد فيه العلماء في كل عصر لرؤية مايحقق العدل ويحمي مصالح الناس. وأعني بمصالح الناس هنا مايحقق لأكثرهم الخير والأبقى. وهذا مايميز النفعية القرآنية على النفعية الأنانية (الذرائعية) التي تسود الغرب. فالنفعية القرآنية تتحرى المصلحة لأكبر عدد ممكن من الناس أطول مدة ممكنة من الزمن.

ولباس المرأة هو من النوع الثاني أي من نوع الأوامر التي فرضت لتنظيم المجتمع وتحقيق السلامة والأمن له. وعلى هذا فإنني لاأعتبره مسألة شخصية خاصة بالمرأة وحدها. كما أن مصالح العباد لايقررها أفراد في جلسة يتطارحون فيها الآراء والظنون.. ولكن الموضوع ينبغي رده إلى المتخصصين - أهل الحل والعقد - فهم الذين يدرسون أوضاع المجتمع وظروفه وما تقتضيه مصالح العباد من تعديلات دراسة ميدانية إحصائية تشمل الأسباب والعواقب القريبة والبعيدة. ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

هاتوا لنا نخبة من العلماء تماثل عمر - رضي الله عنه - في تقواه وفقهه للأمور.. لتقوم بهذه الدراسة الحيوية المعاصره للواقع الإسلامي والعالمي.. وتقدم الحلول العلمية الجديدة.. وعندها لن نختلف بإذن الله لأن الله أمرنا بالعودة إلى المتخصصين عند الاختلاف. وإلى أن توجد هذه النخبة التي تملك القمة في الإخلاص والصواب.. فإنني أعتقد أن أسلم موقف هو الالتزام بالنصوص.. والله أعلم.

يقول الشيخ حسين فضل الله: (إن الحجاب ليس اضطهاداً للمرأة ولكنه إيحاء لها بأن عليها عندما تخرج إلى المجتمع أن تخرج كإنسانة لاكأنثى... الإسلام لايريد للرجل والمرأة أن يعيشا حالة طوارىء جنسية في الحياة العامة... الإسلام أراد أن يهيىء المناخ العام الذي يشجع على التوازن الأخلاقي)[1].

* * *

(١) راجع صفحة ١٠٣ من كتاب: المرأة بين واقعها وحقها في الاجتماع السياسي الإسلامي للسيد محمد حسين فضل الله. والكتاب جدير الاطلاع والتأمل.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة المتواضعة مع المرأة في القرآن.. أتوجه إلى أختي المؤمنة:

أين أنت ياأختي المؤمنة.. ؟

إنك الواحة الوارفة التي يتشوق المجتمع للركون إليها. أين أنت بانبع الرقة والحنان.. ؟ ويامضرب المثل في الإيمان.. ؟

أين أنت يامن كرمها القرآن.. ؟ إن الدنيا بأسرها محتاجة إلى توهج إيمانك.. وإلى دفقة الوداعة والسلام من قلبك العامر بالحب.. أطلي على العالم ياأختي.. واشهدي آلامه ومآسيه.. لقد طال افتقاده لك[1]. فقد خبؤوك وراء الخدور بدعوى الصيانة

---

(١) (كيف تريد لمجتمع أن يتقدم وينهض ويواجه أعداءه طالما أن نصفه نساء والنصف الآخر يتربى على أيديهن.. ويكاد دوره ينحصر في مسائل الزي والأثاث والطعام والأولاد)

= راشد الغنوشي

والورع.. وأقنعوك بالاختفاء داخل قواقع من الجهل والتحريف وسوء الفهم.. اخرجي ياأختاه فإن العالم بانتظارك ياصانعة الأجيال.. لتصنعي مستقبلاً حافلاً بالحب والسلام والارتقاء.

ختاماً: أشكر الذين دفعوني إلى القيام بهذا البحث وأسأل الله أن يأتي من يقدم أبحاثاً ورؤىً أفضل.

اللهم اهدنا لأقرب من هذا رشداً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حنان اللحام

رمضان ١٤١٥ـ ـ ١٩٩٥م